كمال السيد

بولس سلامة شاعر الغدير وكربلاء

في الزمن الأخير



الغدير
بيروت - لبنان

بولس سلامة

شاعر الغدير وكربلاء

في الزمن الأخير

الغدير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان ـ بيروت ـ حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف: ٠٣/٦٤٤٦٦٢ ـ ٠١/٥٥٨٢١٥

تلفاكس: ٠١/٢٧٣٦٠٤

ص.ب: ٢٤/٥٠ ـ بيروت ـ لبنان

الرمز البريدي: ١٠١٧ ـ ٢٠١٠ برج البراجنة ـ بعبدا

E-mail:

feqh@islamicfeqh.org

magazine@alminhaj.org

Web pag:

www.islamicfeqh.org

www.alminhaj.org

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

بولس سلامة
شاعر الغدير وكربلاء
في الزمن الأخير

كمال السيِّد

الغدير
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

إلى والديَّ

ربِّ ارحمهما، كما ربّياني صغيرا

المؤلف

كلمة المركز

في عام ١٩٤٨ ظهرت أول ملحمة عربية حديثة إلى النور، تحت عنوان ((عيد الغدير)) عكست تاريخاً حافلاً بالبطولات الانسانية والامجاد الاخلاقية والنبل والفروسية؛ وبكل ما يفخر به الانسان كإنسان.

وقد ظهرت هذه الملحمة الفريدة، في نفس العام الذي اعلن فيه عن قيام ما يسمى بدولة إسرائيل؛ هذا الاعلان الذي يعكس بمرارة ما وصلت إليه الامّة العربية والإسلامية من ضعف وتراجع..

كانت الأمّة تعيش حالة من التمزق والاستلاب وتعاني من أزمة في الهوية، واذا كان الشعراء في الأمم ينظرون إلى ما وراء الضباب، فإن بولس سلامه الشاعر المسيحي رأى في رسالة الاسلام والرسول محمد ﷺ وأهل بيته ملحمة كبرى، يمكن أن تهزّ وجدان الأمّة العربية؛ فقدّمها خلال ستة أشهر فقط، من أجل اضاءة سراج في طريق الأمة نحو حياة حرّة كريمة.

بولس سلامه ذلك الانسان، الذي صاغه الألم وصهرته المعاناة وجعلت منه انساناً وشاعراً ملحمياً، جدير بالجيل اليوم أن يقرأه

قراءة واعية.. قراءة لانسان بلغ من الاخلاص درجة تشعرك بصدق كل ما يقول؛ فإذا هو أمامك في ضوء الشمس على حقيقته، في آهاته وتأوهاته وشكواه وسخريته، في بكائه وتهكماته وكما قال في مقدمته لـ ((مذكرات جريح)): ((وكان الاخلاص دليلي في كل ما أكتب؛ فتجردت من كل شيء إلاّ من حقيقتي العارية وآثرت إبداء مقاتلي على التلبّس بلباس المصانعة؛ إذ الاجدر بي أن استجلب لومك مصارحاً من أن أنال رضاك مداجياً)).

ان تجربة بولس في معاناته وصبره المرير يستحق أن نقف له اجلالاً؛ فقد كانت حياته والآمه ومقاومته وابداعه الأدبي ملحمة هي الأخرى تضاف إلى ما كتبه من ملاحم رائعة.

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

الفصل الأول

بولس الشاعر

حياته

في ((بتدين اللقش)) وهي قرية تقع في قضاء جزّين في جنوب لبنان ولد بولس سلامة وفتح عينيه على الحياة في عام ١٩٠٢[١]. وتربّى في أحضان أب كان شغوفاً بالسّير الشعبية[٢] فتشرّب الصبي روح الحماسة التي رافقته الى مدرسة القرية حيث تلقى فيها مبادئ اللغة العربية ثم التحاقه بمعاهد الارساليات في صيدا وبيروت وجونيه ثم تخرج من مدرسة الحقوق الفرنسية التي منحته شهادة الليسانس[٣].

وتولى القضاء سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٤٤[٤].

وقد كان بولس شغوفاً بالمطالعة ما أتاحت له الانتهال من ينابيع ثقافية أصيلة تنوعت بين الآداب والدين والفلسفة والتاريخ، وهذا ما أثرى نتاجه الأدبي.

---

(١) انظر عيدالرياض. المقدمة وهي من مؤلفات الشاعر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عيد، منصور، بولس سلامة، دار المشرق ـ بيروت ط١ . ص١٠.

(٤) تكملة معجم المؤلفين ص١٠٢.

في عام ١٩١٩ ولم يدرك الثامنة عشرة من عمره انتخب شيخ صلح وهو موقع اجتماعي يقتضي منه اقامة علاقات اجتماعية مع كبار السن اضافة الى التحلّي بخصال أخلاقية تتسم بالجدّية.

وفي ١٩٣٦ بدأ جسمه بالوهن بسبب هجوم الأمراض والآلام دعته الى كتابة مؤلفه ((مذكرات جريح)) وعدّ نفسه أيوب القرن العشرين بسبب الآلام المبرّحه التي كان يئن تحت سياطها والعمليات الجراحية التي اجراها حيث بلغ عددها اربعاً وعشرين جراحة.

ولكن الآلام التي رافقته مدّة سبعة عشر عاماً انتجت أصدق وأنبل عاطفة انسانية وصنعت عبقرية فريدة تجدها متجسّدة في مؤلفاته التي كانت ملحمة عيد الغدير احداها.

مؤلفاته

ظهرت الى النور مؤلفات عديدة لبولس سلامة ابرزها:

- مذكرات جريح.
- ملحمة عيدالرياض وتتألف من ثمانية آلاف بيت.
- حكاية عُمُر.
- حديث العشية.
- من شرفتي.
- الصراع في الوجود.

- عيد الستين.
- مختارات شعرية.
- تحت السنديانة.
- في ذلك الزمان.
- خبز وملح[١].

ملحمة عيد الغدير

بالنظر الى اهمية ملحمة عيد الغدير وموقعها الحالي في الأدب العربي عموماً وفي العصر الحديث خصوصاً نقوم باستعراض سريع يعكس للقارئ العربي مضمونها الراقي وابداعها الفني.

ان المواضيع الرئيسية التي تتغنى بها الملحمة هي مشاهد من أمجاد بني هاشم وسموهم الاخلاقي في العصر الجاهلي، ثم تصوّر بعد ذلك حادثة البعثة النبوية الشريفة والنور الذي اشرق فوق جبل حراء؛ ففير التاريخ والانسان ثم تنتقل الى شخصية علي وأمجاده وبطولاته، ثم تقف في وادي غدير خم حيث بشارة النبي ﷺ للمسلمين باعلان الامام علي خليفة من بعده؛ فيصور تلك الفرحة

(١) مشاهير شعراء والأدباء ص٥٢ ـ ٥٣، مجلة النيل ع٣٢ صفر ١٤٠٠هـ معجم اعلام المورد ص٢٤٠.

الكبرى والتهاني التي تبادلها المسلمون فيما بينهم لتكون المناسبة عيداً اسلامياً كبيراً وتنتقل لتصف وتستعرض حياة علي في الخلافة الراشدة؛ أما القصائد الأخيرة وهي اثنتا عشرة قصيدة فقد خصّها للحديث عن الامام الحسين بن علي عليهما السلام فواكب حركته الثورية الجهادية من المدينة الى مكة الى كربلاء حيث استشهاده؛ وبعد تأتي الخاتمة التي تكاد تكون استمراراً لفاتحة الملحمة وتتميز فاتحة الملحمة التي حملت عنوان ((صلاة)) و((الخاتمة)) بكونها شعراً وجدانياً تبرز فيهما ذاتية الشاعر وهو يئن تحت سياط الآلام والمرض والعذاب، راجياً ان يكون كل ذلك بوتقة يتطهر فيها من الضلال؛ كما تراه متأسياً بما عاناه علي عليه السلام وآل بيته من الظلم والقهر والاضطهاد، فلا يجد فرقاً بين ما فعله نيرون بالمسيحيين من ذبح وما فعله عبيدالله بن زياد من قتل لآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله.

غاص نيرون في دماء النصارى	*فحباهم زرع الخلود نميّا*
وأراق (العبيد) مهجة أهل البيت	*فاستشهد الحسين أبيا*
ومضى للهلاك وغد زياد	*ولواء الحسين ظلّ عليّا*

وتقف ملحمة عيد الغدير في الادب العربي الحديث سامقة بما اشتملت عليه من تسجيل وتمجيد للبطولات وبما امتازت به من الهام شعري يأخذ بالألباب.

شاعريته

نستيطع القول ان الآلام التي عاناها الشاعر قد فجّرت في اعماقه شاعرية فيّاضة وكانت عبقريته تتفتح وتزدهر، وفي كل فترة راحة في مسلسل الألم الطويل كان بولس سلامة يستثمرها في الكتابة، ويشعر الدارس لحياته أنه كان في حالة سباق مع الموت وهو يكتب؛ فظهرت له مطولات شعرية وملاحم في غضون فترة وجيزة فقد كتب مطولته ((علي والحسين)) عام ١٩٤٦ و((الأمير بشير)) عام ١٩٤٧ و((فلسطين وأخواتها)) في نفس العام وفي عام ١٩٤٨ ظهرت ملحمة ((عيد الغدير)) ثم أعقبها في عام ١٩٥٥ ظهور ملحمة ((عيد الرياض)) وطالما كان يتباهى بالأخيرتين، وقد ابدع في كتاباته النثرية كما ابدع في شعره مع ميل واضح وحماس لكتابة الشعر؛ فكان يحب أن يعرف بشاعر الملحمة إذ كان يقول: ((الملحمة في دمي))[١] وكان ذلك بعد ابداعه ملحمته الرائعة عيد الغدير.

وغديرية الشاعر الاستاذ بولس سلامة هي احدى قصائد ملحمته الكبرى التي تحمل عنوان عيد الغدير.

وتقع هذه الملحمة في سبع واربعين قصيدة ويبلغ مجموع أبياتها ثلاثة آلاف واربعمائة وخمسة عشر بيتاً.

---

(١) عيدالرياض، المقدمة ص٤.

وقبل الحديث عن ملحمة عيدالغدير يجدر أن نتوقف عند مفهوم الملحمة في الأدب العربي وظهور أدب الملاحم لدى العرب.

الملحمة قصة أو قصص طويلة باسلوب شعري تصوّر مآثر وأمجاد وأحداثاً جرت للأمم حيث تسطع البطولات في العادة لتكون محوراً يربط أجزاء الملحمة أو القصيدة الطويلة جداً ولذا يمكن القول أنها كانت تؤدي دوراً تاريخياً لدى الامم المتحضرة نسبياً قبل تبلور فكرة كتابة التاريخ.

وتؤدي الملحمة دوراً اشعاعياً في الالهام حيث تلهب في نفوس الشعب عشق المثل العليا والتضحية في سبيلها وتثير في الصدور روح المقاومة والاعتزاز بالامجاد التي صنعها الاجداد.

وباختصار يمكن القول ان الملحمة هي قصّة أمّة ورواية كاملة عن حياة بطل هو رمز من رموزها الخالدة.

وعندما يذكر الادب الملحمة تسطع اسماء عديدة من قبيل ((الالياذة)) لفرجيل و((الفردوس المفقود)) لملتون و((الشاهنامة)) [١] لفردوسي.

غير أن للملحمة في الادب العربي مفهوماً آخر؛ فهي تعني واقعة حربية كبرى، كما جرى استخدامها في التاريخ كنبوءات عما سيقع

---

(١) ترجمها الى العربية البنداري في القرن السابع الهجري.

من احداث جسام في المستقبل[١].

وقد استخدم ابن خلدون مفردة الملحمة في مقدمته ليشير الى القصائد الطويلة التي تظهر في الامم شرقاً وغرباً غير انه يقرنها (الملاحم) بالحوادث الكبرى والحروب وحتى ظهور الاوبئة والقحط والجفاف والتحولات السياسية الكبرى.

ملحمة عيد الغدير.. محطّات

ظهرت هذه الملحمة في وقت كانت الامة الإسلامية والعربية تشهد موجات من الغزو الثقافي والفكري؛ حيث مهد لذلك الغزو العسكري والقهر السياسي وظهر تفوق الغرب المادّي واضحاً وجليّاً وهذا ما يجعلنا ننظر بتقدير عميق الى مؤلف الملحمة وهو شاعر مسيحي غير ان عاطفته الانسانية ونشأته في بيئة اسلامية حيث تشرّب فيها قيم الاسلام والانسانية ما جعله جزءً من الأمة العربية والاسلامية.

نظم بولس سلامة ملحمته في سنة ١٩٤٨ ويبدو أن الشاعر التفت الى افتقار المكتبة العربية الى الملاحم وظل متردداً في اختيار موضوع مناسب بعد أن تلقى توجيهاً من الشيخ عبدالله العلالي الذي تمنّى عليه نظم أيام العرب، غير أن اقتراح السيد عبدالحسين شرف

---

(١) الاصفهاني / كتاب الاغاني ج١ ص١٦٩ ط دار الفكر العربي بيروت.

الدين في أن ينظم ((الغدير)) قد أشعل في صدره الحماس لثراء الموضوع وتألق البطولات فيه.

ومن المؤكّد أيضاً أن الموسوعة ((الغدير في الكتاب والسنة والأدب)) التي ظهر منها خمسة أجزاء آنذاك لم تكن بعيدة عن التأثير في نفس الشاعر سلامة.

وتشير رسالته التي بعث بها الى العلامة الاميني (مؤلف الموسوعة) في أيلول سنة ١٩٤٨ الى ما يعزّز هذا الاحتمال.

وقد جاء في رسالته الجوابية تلك بعد تلقي الجزء الخامس ما يلي:

((وانما اعتذر اليك عن تأخيري الجواب اعتذاراً يسرّك حتى لتؤثره على الواجب، ذلك أنّي كنت في الآونة الاخيرة اختلس الفترات التي يهادنني فيها المرض لأنظم ((يوم الغدير)) في ملحمة تناولت فيها أهل البيت منذ الجاهلية حتى ختام مأساة كربلاء، وقد أربى عدد ابياتها على ثلاثة آلاف وخمسمئة وجعلت عنوانها ((عيد الغدير)).

ويختم رسالته بتقديم تبرير على خطوته التي قد تبدو مستغربة يقول الشاعر: ((والأدلة على عظمة أميرالمؤمنين ـ بل أمير العرب ـ لأجلّ من أن تحصى وشأن من يحاول حصرها شأن من يبغي التقاط اشعة الشمس، وانني لاكتفي بواحد منها في هذه الرسالة وهو ان

يتلاقى على حبّ أهل البيت رجلان أحدهما شيعي جليل وقف قلمه منذ خمس عشرة سنة على خدمة الحق ولما يزل وهو أنت وثانيهما هو هذا المسيحي العاجز الذي جاء في الزمن الأخير وعلّة ذلك أن صعيد الحقيقة هو على شاطئ دجلة وعلى ضفاف الأزرق المتوسط وأن الحق شعلة من الضياء السماوي وانها لشعلة مشتعلة بالخلود بلا نهاية، بالله))[١].

وقد استغرقت كتابة الملحمة مدّة ستة أشهر قضى نصفها في دراسة التاريخ الاسلامي وسير حوادثه ثم شرع بعدها في نظم ملحمته الرائعة في ثلاثة اشهر فقط، وفي ظروف صحية ليست مساعدة ومع ذلك فقد جاءت أثر ادبياً ملحمياً فريداً في حينه ولم يزل كذلك.

تتألف الملحمة من سبعة وأربعين قصيدة مفتتحاً اياها بصلاة مؤثرة:

يا مليك الحياة أنزل عليّا عزمة منْ" تبعث الصخر حيا

جود كفيك أن تشأ يملأ العيش نماء ويفرش الجدب فيا

يوقظ الوردَ فالربيع على التلّ ضحوك الالوان طلق المحيا

---

(١) موسوعة الغدير الجزء صفر ص٢٦٧ ـ ٢٦٩.

كلمــا افتــرّ بــرعم داعبتــه — كــفُّ ريــح تقــول للطيــب هيــا

واهــب النــور والنــدى للــواربي — أولــني مــن جمــال وجهــك شــيّا

طــال في منقــع العــذاب مقــامي — واســتراح الشــقاء في مقلتيــا

فنســيت النــهار مــن طــول ليلــي — أتــرى الليــل شــرعك الابــديا

ليــتني أبصــر النجــوم فأهــدي — في العشــيات بســمة للثريــا

ان حظــي مــن الحيــاة ســرير — صــار مــني فلــم يعــد خشــبيا[1]

كــل هــذه الــدنيا الطليقــة اضحت — ويــحَ حظــي اضــحت حرامــاً عليــا

يــا إلهــي ســدّد خطــاي فــاني — قــد تمرّســت بالضــلالة غيّــا

بالعــذاب الأمــر طهّــر فــؤادي — فيعــود الصلصــال درّاً مُضــيا

منشــىء القطــر مــن أجــاج كريــه — ومحيــل الخضــم طــلاًّ مريــا

عــن مهــاوي الآثــام نــزه جنــاني — وعــن المــين والهــوى شــفتيا

في ســبيل الكمــال أجــر يراعــي — ملــهم البــث فيصــلا عربيــا

فاصــوغ الالفــاظ أقمــار ورد — خالعــاً فوقهــا الصــباح النــديا

واذا آذن البيــان بحــرب — الهــب الطــرس مرقمــي والرويــا

ايــن مــني الشــباب يــوم خيــالي — يرتقــي ســدّة الســنى عبقريــا

فيــه مــن رفــة الجنــاح دويّ — ويكــاد الســهى يُجيــبُ الــدويّا

هــات يــا شــعر مــن عيونــك واهتــف — باســم مــن اشــبع السباســب ريّــا

---

(١) يشير الشاعر المقعد الجريح الى مرضه المزمن الذي الزمه السرير.

باسـم زيـن العصـور بعـد نـبيّ نـوّر الشـرق كوكبـا هاشميـاً
باسـم ليث الحجاز نسـر البوادي خـير مـن هـزّ في الـوغى سمهريـا
خـير مـن جلّـل الميـادين غـاراً وانطـوى زاهـداً ومـات ابيـاً
كـان رب الكـلام مـن بعـد طـه وأخـاه وصـهره والوصـيا
بطـل السـيف والتقـى والسـجايا مـا رأت مثلـه الرمـاح كميـا
يا سمـاء اشهدي ويا ارض قـرّي واخشـعي انـني اردت عليـا

ويختـتم الشـاعر ملحمتـه بقصـيدة رائعـة تشـعرك بانهـا امتـداد لافتتاحيتها إذ يقول:

يـا إلـه الأكـوان اشـفق عليـا لا تمـتني غـب العـذاب شـقيا
أولـني اجـر عامـل، في صـعيد الخـير، يبغـي ثوابـك الأبـديا
مصـدر الحـق لم أقـل غـير حـق انـت اجريتـه علـى شـفتيا
انـت الهمـتني مـديح علـيّ فهمـى غيـدقُ البيـان عليـا
وتخيّـرت للأمـير واهـل الـ بيـت قلبـاً، آثرتـه عيسـويا
جـل رب الوجـود بـاري البرايـا ان يُـرى في حنانـه حزبيـا
انمـا الخلـق كلـهم لعيـال الله، والشـهم مـن يكـون تقيـا
فيـوليّ عـن الظـلام مـنيراً كـل مـن راح في الظـلام غويـا
تاركـاً بعـده مـن الخـير دنيـا ومـن الـذكر هـيكلاً سـرمديا
هكـذا كـان صهر أحمـد يضـفي نبلـه مـلء سـرحة الـدهر فيّـا

هو فخر التاريخ لا فخر شعب يدعيه ويصطفيه وليا
ذكره ان عرى وجوم الليالي شق من فلقة الصباح نجيا
لا تقُل شيعةٌ هواة علي إنّ في كل منصف شيعيا
إنما الشمس للنواظر عيد كل طرف يرى الشعاع السنيا

* * *

غاص نيرون في دماء النصارى فحباهم زرع الخلود نميا
وأراق (العبيد) مهجة اهـ ـل البيت فاستشهد الحسين أبيا
ومضى للهلاك وغد زياد ولواء الحسين ظل عليا
دمه السمح جلّل الدهر فخرا وجرى في العصور خصباً وريا
كلما أعوز الميامين عزم لمسوه فعاد غضاً طريا
من خلال التاريخ . زَيفه الاعـ ـداء . يبقى دم الحسين زكيا
ذاك ان التاريخ في قيد جورٍ بات سفراً مزوّراً أمويا
لا يضير الاسلام اني هجوت الامويين، قد وصفت الشقيا
ليس فيهم غير ابن عبد عزيز مسلماً كان، قانتاً صوفيا
وسواه ما كان إلا ظلوماً أو خليعاً أو ملحداً وثنيا[1]

---

(١) ومن جملة اعمال الأمويين ومآثمهم ان عبدالملك بن مروان كان يرى الشدة ولو خالف احكام الدين. وهو اول من نهى عن المعروف إذ قال: ((والله لا =

= يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه))، وكان قبل ان يتولى الخلافة يتظاهر بالتدين فلما جاؤوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فأطبقه وقال: ((هذا آخر العهد بك، أو هذا فراق بيني وبينك)). فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير، ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة، والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها. فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً وهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين احجارها واستارها مما لم يحدث مثله في الاسلام. ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا أهلها وسفكوا دماءهم. ولم يغلق لها باب إلا احرق ما فيه. حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينتزعون خمورهن من رؤوسهن، وخلاخلهن من ارجلهن، سيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهم. (تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان أخذاً عن الاغاني، وابن الاثير، وابي الفداء، والعقد الفريد، وابن خلكان).

وتوفق بنو امية الى عمال اشداء زادوهم استبداداً، وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف احكام الدين. واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبدالملك فانه سمى الخليفة: خليفة الله وعظّم أمر الخلافة حتى فضلها على النبوة فاذا حاجّه احد في ذلك قال: ((أخليفة احدكم في اهله اكرم عليه أم رسوله في حاجته)) وكان عبدالملك اذا سمع ذلك اعجب به. واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال: كخالد القسري عامل هشام بن عبدالملك. وذكروا ان خالداً هذا كان قليل العناية في حفظ القرآن فاذا تلا آية أخطأ فيها وألحن في نطقها. فوقف مرة للخطابة فقال، وأخطأ ثم ارتج عليه وفشل. فنهض صديق له من تغلب =

فـابن مـروان يـوم بُشّـر بالسلـ ـطان ألقـى كتابـه علنيـا

((قـال للمصـحف المجيـد فراقـا لـن تـراني أتلوك مـا دمـت حيـا

((فأنـا المالـك الخليفـة ظـلّ الله اعلـى مـن الـنبي صـفيا

((أيكـون المليـك أدنى مقامـا مـن رسـول إذن أكـون غبيـا

والوليـد السـكران يمـزق بالنشـ ـاب قرآنـه ويشـتط غيـا

((قـل لمولاك إن تجـيء يـوم حشـر قـد لقيـت الوليـد قرمـاً عتيـاً))

= فقال: خفض عليك ايها الامير ولا يهولنك. فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن، وانما يحفظه الحمقى من الرجال)) فقال خالد: ((صدقت يرحمك الله)) فلا غرو بعد ذلك اذا علمنا ان الوليد بن يزيد رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره. فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف، فلما فتحه وافق صفحة فيها: ((واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد)). فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه. ثم قال:

أتوعد كل جبـار عنيـد *فهـا أنذاك جبار عنيد*

اذا لاقيت ربك يوم حشر *فقـل لله مزقني الوليد*

وهشـــام ينحـــو مـــن الخالـــد القســـري في الفســـق نهجـــه الكفريـــا
أو لـــيس الحجـــاج أوقـــح اهـــل الارض ذئبـــاً في ظلـــهم يتفيـــا؟
ولد الجـــور يـــوم مولـــده المشـــؤوم فـــاستعذب الدمـــاء صبيـــا

فهو إبليس! قد ظلمتك يا ابليس ... خلقـــاً ورأفـــة ومحيّـــا
يثربـاً قـد اباح للجنـد فالأخـ ... ـدار تلقـى الزنجـيّ والنبطيـا
كعبـة الـدين مـن يـبح حرميهـا ... كيـف يخشـى مـن بعـد ذلـك شيّا
لـيس بـدعاً فكـل ينبـوع شـرٍّ ... كـان في اصـل اصـله عبشـميا[1]

*　　*　　*

يـا علـيّ العصـور هـذا بيـاني ... صـفت فيـه وحـي الامـام جليـا
أنـت سلسلت مـن جمانـك للفصـ ... ـحى ونسّـقت ثوبهـا السـحريا
يـا امـير البيـان هـذا وفـائي ... احمـــد الله ان خُلقـــت وفيـــا
وهـو جهـد المـريض لـيس عليـه ... مـن جنـاح إن لم يـدق الثريـا
حطّمـت سـورة العـذاب يراعـي ... واسـتباحت فمـي وغلّـت يـديا
أتلـوّى علـى الجـراح صـباحاً ... ويفـت الناسـور عظمـي عشـيا
فتعجـب لسـابح في جحـيم ... رده الخطـب زورقـاً بشـريا
كدت اقضي لولا النهى والتأسي ... ونعـيم اصـوغه وهميـا

---

(١) عبشمياً: في النسبة الى عبد شمس.

أتأسى بابن البتول فيولـ ـسيني عزاء وبلسما معنويا

فاسم عيسى على الشفاه حبيب طاب وقعاً على القلوب نديا

شرب الكأس مُرّة وتمنى مرفقاً راحماً ولو صخريا[1]

أتأسى بهاجرٍ يقطع الصحـ ـراء قفراً عن بيته منفيّا

ما رأى في الحياة ظلّ هناء منذ ما عاد من (حراء) نبيا

اتأسى بالاكرمين خصالاً لم يسيغوا في العمر شرباً مريّا

بالذي باكر الشهادة (بدريّاً) واغلى إكليلها (الكوفيا)

بجراح الحسين، في كل جرح يجد الصبر كهفه الأزليا

* * *

ويح حظي! تنوء بالحسّ اعصابي إذا جلجل الخيال دويا

فان استمسكت فعيد القوافي واذا ما وهت ذويتُ شجيا

ليس عجباً ان يخطئ الصيدرامٍ اوهن الحظُّ طرفَه العبقريا

اه يا داء لو تركت لعيني فسحة الأفق ملعباً ورديا

---

(١) ولما رأى يسوع جموعاً كثيرة أمر بالذهاب الى العبر. فدنا اليه كاتب وقال له: يا معلم اتبعك الى حيث تمضي. فقال له يسوع: ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكاراً، واما ابن البشر فليس له موضع يسند اليه رأسه. (انجيل متى، الفصل الثامن عدد ١٨ ـ ٢١).

او ازحت الكابوس عن صدري الوا ... هـي، اعـب النسـيم وردا شـذيا

فيسيل الجمال خمر حياة ... وتهلّ اليراعُ دفقَ حميا

لتركت الغبار للمتنبي ... ولخلّفت بعده البحتريا

من رأى الأرض حفنة من تراب ... شاد احلام قلبه شعريا

* * *

إنما الشاعر المحلق روض ... يُترع الافق بالشذا عنبريا

كيفما جئته نشقت عبيراً ... وتنسمت حلمه السندسيا

كلما ازداد من سناً جنيَ سحرٍ ... راح في بذله السنا حاتميا

يا امير الاسلام حسبي فخراً ... انني منك مالئ اصفريّا

جلجل الحق في المسيحي حتى ... عُدّ من فرط حبِّه علويا

انا من يعشق البطولة والالـ ... ـهام والعدل والخلاق الرضيا

فاذا لم يكن عليّ نبياً ... فلقد كان خلقه نبويا

أنت ربُّ للعالمين إلهي ... فأنلهم حنانك الابويا

وانلني ثواب ما سطّرت كفي، ... فهاج الدموع في مقلتيّا

سفر خير الانام من بعد طه ... ما رأى الكون مثله آدميّاً

يا سماءاشهدي ويا أرض قرّي ... واخشعي، إنني ذكرت عليّاً

ويذيّل ملحمته الرائعة بتوقيع وتاريخ يعود الى بيروت ٤ حزيران ١٩٤٨ وسوف نعود الى الحديث عن ملحمته هذه بعد استعراض

لحادثة الغدير كما عكسها الشاعر.

حادثة الغدير

وحادثة الغدير أفرد لها الشاعر الراحل قصيدة حاملة حملت عنوان يوم الغدير.

وقد ابدع في تصوير يوم الغدير الذي استحال الى عيد اسلامي كبير يمجده كثير من المؤمنين يقول بولس:

عاد من حجة الوداع الخطير ... ولفيف الحجيج موج بحور

لجة خلف لجة كانتشار ... الغيم صُبحاً في الفدفد المغمور

وتبارى للحج كل رشيد ... يستطيع القيام للتكبير

والملبّون في الحطيم كرجع الـ ... ـنحل ينبثّ مادراً في القفير

واستفاض النبي نصحاً واحكاما ... وهدياً الى الصراط القدير

تسكب الشمس في الاصيل شعاعاً ... يبعث الدفء في صميم البذور

هي تدري ما يكتم الليل من ... وجه صقيع ومن ظلام ضرير

فتُسيل الحياة دفئاً لأغـ ... ـراس لدان تقيَّة الزمهرير

يحمل الكاتب الكتاب ختاماً ... موجزاً صفو رأيه في سطور

والذي يرقب الممات وشيكاً ... ينشر القلب في الكلام الاخير

البلاغ الأخير

بلـغ العائـدون بطحـاء (خـمّ)   فكـأن الركبـان في التنُّـور

عرّفـوه غـدير خـمّ ولـيس الـ   ـفور الا ثمالـة مـن غـدير

ايّ مسـتنقع وخـيم كـأنّ الـ   ـماء فيـه غضـارة مـن قـير (١)

بلفـوه لا يجمـدون مقـيلا   بـل يحثّـون نـوقهم للمسـير

واذا بـالنبي يرقـب شـيئاً   وهـو في مثـل جمـدة المسحور

جـاء جبريـل قـائلاً: ((يـا   نـبي الله بلّـغ كـلام ربّ مجـير

((أنت في عصمة من النـاس فانشر   بيّنـات السـماء للجمهـور

((وأذعهـا رسـالة الله وحيـا   سـرمدياً وحجـة للعصـور))

الخطاب العام

ودعـاهم الى السـماع منـاد   فاسـتجابوا رجـع النـداء الجهـير

حسـب طـه إيمـاءة وتكـرّ الـ   ـناس كـالهيم أحـدقت بـالنمير

بـين غمـر يلـوي لجـام حصـان   وحكـيم يـثني خطـام بعـير

هيبـة لم تكـن لقيصـر رومـا   ونفتـها الايـام عـن اردشـير

واسـتداروا كهالـة حـول بـدر   يغمـ[illegible]ـر الارض بال[illegible]ـاع ال[illegible]ـير

يحبسون الاصوات فالسمع يحصي   خفقـة خفقـة وجيـب الصـدور

لـيس يخفـى علـى المسـامع الاّ   خلجـة الفكـر او رفيـف الشـعور

---

(١) القير هو الزفت.

واشرأبت اعناقهم متلعات ... كالغرانيق أشعرت بالنذير
كلهم يرقب البيان وما في ... الأمر شك فالقول جد خطير
كلهم مجهد يصعِّد انفاساً ... قصاراً في لهفة المبهور
ما دعاهم طه لأمر يسير ... وصعيد البطحاء وهج حرور
وارتقى منبر الحدائج طه ... يشهر السمع للكلام الكبير

رسالة الله

((أيها الناس قال أوشكُ أن ... ادعى واني وانكم لنشور
((وكلانا يجيب: هل تشهدون ... الحق اني بلغت أمر القدير؟
أدركوا لهجة النعي خلال الـ ... ـقول فالصوت في جلال القبور
عبرات ملء العيون وكبتٌ ... في حلوق تأججت بالزفير
((أننا شاهدون قالوا جزاك ... الله خيراً من ناصح ومشير
((أولا تشهدون ان لا اله ... غير رب فرد رحيم غفور
((وبأني عبدٌ له ورسولٌ ... لم يقصِّر في النصح والتبشير
((وبأن الممات حق وان الـ ... ـبعث حق لجنّة أو سعير
للبغاة الاشرار سوط عذاب ... للميامين كسوة من حرير
((فاجابوا: بلى فقال ((إلهي ... أنت فاشهد لعبدك المأمور
((أيها الناس انما الله مولا ... كم ومولاي ناصري ومجيري
((ثم اني وليُّكم منذ كان الـ ... ـدهر طفلاً حتى زوال الدهور

((يا الهي من كنت مولاه حقاً — فعليٌّ مولاه غير نكير
((يا الهي والِ الذين يوالون ابـ — ـن عمي وانصر حليف نصيري
((كُن عدواً لمن يعاديه واخذل — كل نكس وخاذل شرير))
قالها آخذا بضبع علي — رافعاً ساعد الهمام الهصور[1]
لاح شعر الإبطين عند اعتـ — ـناق الزند للزند في المقام الشهير
فكأن النبي يرفع بنـد الـ — ـعزّ عيداً للقائد المنصور
راوياً للزمان فضل علي — باسطاً للعيون حق الوزير
حيدر زوج فاطم وابو السـ — ـبطين، والرمح يوم طعن النحور
وربيب الرسول وابن مربّـ — ـيه المُعاني في البذل جهد الفقير
والفقيه العظيم اصوب خـ — ـلق الله رأياً لطالب مستنير
وامير الزهّاد قبلاً وبعداً — حسبه في الطعام قرص الشعير

القرآن والعترة

((سوف القاكم على الحوض اذ — يأتي عليٌّ بكير كل بكير
((أسأل المؤمنين كيف حفظتم — عفو أي القرآن امر سفيري
((لا تضلُّوا واستمسكوا بكتـ — ـاب الله بعدي بعترتي بالامير))

---

(١) الضبع: العضد.

حوض الكوثر

((انكم ورد على الحوض يوماً)) وهو مدّ الخيال مدّ الضمير
ماؤه فضة تسيل وقطر من عيون السماء غبّ الطهور
يستحم الضياء فيه ويهفو من جوار النجوم قلب الاثير
بهجة الشمس رونقاً وصفاء وانتشار الطيوب فوح عبير
فشراب من سلسل ونمير وامتزاج التسنيم بالكافور
لا تمرّ الظلال فيه لئلا يترك الظل كدرة في المرور
حوله صفّت الكؤوس كمدً الرمل يمتد في ضفاف النهور
واباريق فضة ونضار راح منها الشعاع في تكسير
لذة الشاربين طعماً وطيبا فالاباريق منهل للسرور
ويلفّ الحوض الفسيح جدار من عقيق ممرّد مصهور
كيفما تسرح العيون تلاقي موجة النور عبر موجة نور
يعكس الغور ضوءه فعلى الاحـ ـداق بحر اللآلئ المنثور
ذاك رمز الجنان أيّ يراع يستطيع الاداء في التصوير
جودة الله فوق ما تعقل الاقلام وصفاً لرائع منظور
يسبح المرء في الخيال ويبقى في شؤون السماء جدّ غرير

فرحة وعيد

بثّ طه مقاله في علي واضحاً كالنهار دون ستور
لا مجاز ولا غموض ولبس يستحث الأفهام للتفسير

فأتـــاه المهنئـــون عيـــون الـــ ـــقوم يبـــدون آيـــة التـــوقير
جـــاءه الصـــاحبان يبتـــدران الـــ ـــقول طـــلاً علـــى حقـــاق العـــبير
((بـــتّ مـــولى للمـــؤمنين هنيئـــاً للميـــامين بالامـــام الجـــدير))
هنأتـــــه ازواج احمــــــد يتلـــــو هـــنّ رتـــلّ مـــن الجميـــع الغفـــير
عيدك العيـد يـا علـي فـان يصـ ـمت حسـود او طـامس للبـدور
تنطـق البيـد نـاثرات علـى الصـ ـحراء وشياً مـن كـل زهـر نضـير
وتحـــول النجـــوم في الليلـــة الـــ ـــزهراء لُسْـــناً فضـــيّة التعـــبير
ينشـر الـورد طيـب ذكـرك فوحـا فعلـــــي مرجــــع في العطـــــور
في النسـيم الريـان، في بسـمة الا صباح، خفّـت علـى الجمـان النـثير
في هتـاف الطيـور هبّـت نشـاطاً مرهفـات اللّهـا، عصـاة الوكـور
كلمـــا غـــرّد المـــزار قـــراراً هـــاج لحـــن الجـواب في الشـحرور

*   *   *

عفـوك السـمح يـا علـيُّ عـن الحسـاد فـالعُمي حُسَّـدٌ للبصـير
ينثـرون السـهام للنسـر طعنـاً وحبـــوب الطعـــام للعصـــفور
يُرهـب الليـث آجمـاً والضعيـ ـف الهـرُّ يغـدو منعمـاً في الـدور
كلمـــا حـــاول الكـــريم عبـــوراً وقـــف الشـــؤم دونـــه في العبـــور
لا تكـاد العيـون تلمـح ظـلّ الـ ـخير حـتى تجـوز بحـر شـرور
انمـا الخـير فلـذة مـن ضـياء كفنتـــــها الأهـــــواء بالـــــديجور

انــزل الله آيــة عقــب ذاك الــ ـــيوم ختمــاً لدينــه المــبرور
كــان وهــج الشــروق يــوم حــراء وجــلال المغيــب يــوم الغــدير

ولأهميـة هـذه الملحمـة في الشـعر العـربي الحـديث عمومـاً وأدب الملاحم خصوصاً نواكب معاً محطات هامّة فيها:

محطّات في الملحمة

اختـار الشـاعر الملحمـي بـولس سـلامة محطّاتـه بدقّـة تصـل حـدّ الالهـام فتحـت عنـوان ((الجاهليـة)) يرسـم الشـاعر صـورة معبّـرة عـن المشهد البائس الذي يخيم فوق رمال شبه الجزيرة العربية.

كــان في ذلــك الزمــان القــاتم في رمــال الحجــاز شــعب عــارم
راح في لجــة الضــلالة يهــوي لــيس يــدري أي الفعــال مــآثم

وتراهم من سورة الخمر صرعى عربـــدات فمنكـــر فشـــتائم
تعبـد (الـلات) أو ترجـى (منـاة) والمرابــون أعبــد للــدراهم

ومن قريش تظهر أرومة بني هاشم فاذا هو فرع كريم تتألق فيه الصفات الانسانية النبيلة والمجد الاخلاقي السامق.

هاشم يرفد الحجيج ويهدي فضله الـــرزق للنســور القشــاعم
حمــل المجــد صــيته فتمشــى في مشــية العطــر في رفيــق النســائم

ومن هاشم يتألق اسم آخر هو عبدالمطلب:

شيبة الحمد جاء سرّ ابيه　　　يستجيب العلى يشدّ الدعائم

بيته الرحب مشرع للأيامى　　　واليتامى فما بمكة صائم

ويرسم الشاعر بريشته مشهد صلاة الاستسقاء عندما قصد زعماء قريش عبدالمطلب يطلبون منه ان يستسقي؛ بعد ان ضرب الجفاف اطنابه في مكّة فأخذ عبدالمطلب معه حفيده محمد ﷺ الى عرفات فقد كان يعرف شأن هذا الصبي الذي ولد في عام الفيل وقد دفع الله شرّ الغزاة وأبادهم حتى اصبحوا كالعصف المأكول.

كان هذا الطفل اليتيم رفيعاً　　　يوم مادت جوانب البطحاء

بعجيج الأخيال والجيش مجرّ　　　كحبال الأمواج في الدأماء

أنت أفنيت ذلك الجيش عدلاً　　　ودفنت الطغاة في الكبرياء

وبعد ذلك يصوّر مشهد الاستسقاء وكيف انهمر المطر بعد ان اتجه الصبي الطاهر بنظره الى السماء:

رفع الطفل طرفه بانكسار　　　بين جفنيه مثل طيف البكاء

فتداعى الغمام من كل صوب　　　وتبارك دموعه في السخاء

ولا ينسى الشاعر الملحمي أن يصور بروعة مشهداً كونياً أخاذاً عندما ولد محمد ﷺ:

أرهـف الكـون سمعـه وتمشّت   *في الجمـادات نشـوة الصـهباء*

واستفاقت جزيـرة العـرب حيرى   *(فمنـاة) و(الـلات) في الـدقعاء*[١]

وتوالـت في أرض فـارس ارزاء   *جسـام فنارهـا في انطفـاء*[٢]

حسب الرمـل ذلـك اليـوم قـبراً   *ينبـت الحلـم في جفـون الرائـي*

فسـهول الحجـاز بحـر نضـار   *مـن نـثير السـبائك الصـفراء*

ضـحك السبسـب الخلـيّ   *وشقّت أنمل الورد صفحة الدهناء*

ذاك عـرس الـدنيا فـلا غـور أن   *بثّ صلاحها ونمنمت في الكسـاء*

ويتوقف الشاعر عند أبي طالب عليه السلام الذي كفل النبي صلى الله عليه وآله ورعى طفولته ودافع عن رسالته:

يـا أبـا طالـب فـدتك السـجايا   من مجير سمح الجنان نصور

ويبلـغ الـنبي صلى الله عليه وآله الاربعـين وهـو لا ينفـك يتجـه الى حـراء ذلـك الجبل الذي يبعد عن مكة عدّة أميال وهناك يتلقى النبي صلى الله عليه وآله كلمات السماء يحملها اليه جبريل الأمين:

كـل عـام يرتـاد غـار (حـراء)   *مفعـم الـروح ملـهم الـتفكير*

هـدأ الكون وأضحى الصوت حتى   *لـتحس الآذان همـس العطـور*

واذا صـوت هـاتف يهتـف أقـرأ   *فـيردّ الصـدى نـداء البشـير*

---

(١) جاء في السيرة أن الاصنام خرّت على وجوهها يوم ولد النبي (ص).

(٢) وان النيران في فارس انطفأت.

قـال جبريـل: يـا محمـد كبِّـر ... باسـم رب مـلء الوجـود قـدير
صـفحة الكـون بـدَّلت في ثـوان ... بـين مرآتهـا ضـمير الـدهور
فـإذا أحمـد العظـيم نـبيّ ... والمجيـد القـرآن حلـم المصـور

ثم تبدأ بالظهور شخصية علي التي هي محور الملحمة لتكون رمزاً للبطولات والامجاد الانسانية.

لقد ولد علي في أطهر بقعة في العالم؛ في الكعبة بيت الله العتيق.

واسـتفاق الحمـام يسـجع سـجعاً ... فتـهش الاركـان للتفريـد
هالـت الأم صـرخة حـال فيهـا ... بعض شيء من همهمات الأسود
دعـت الشـبل (حيـدراً) وتمنـت ... وأكبـت علىالرجـاء المديـد
بـل (عليـاً) نـدعوه قـال أبـوه ... فاسـتفزّ السـماء للتأكيـد
ذاك اسـم تناقلتـه الفيـافي ... ورواه الجلمـود للجلمـود
يهـرم الـدهر وهـو كالصبح باق ... كـل يـوم يـأتي بفجـر جديـد

ويؤمن الفتى عليّ برسالة النبي الذي تربّى في ظلاله وتعلّم من أخلاقه فكانت روح علي قبس من روح محمد ﷺ.

ويصف الحادثة التي وقعت اثر نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1].

---

(١) الشعراء: الآية ٢١٤.

نزلت آية تقول: ألا اصدع ... واتل انذار خالق لعبيد

انذر الاقربين واخفض جناحاً ... للملبّين عصبتي وجنودي

ويتوقف الشاعر عند حديث الدار، الذي يعد أول اعلان يصف منزلة علي عندما لم يلبّ دعوة النبي سواه:

قال: والرأس في ارتفاع وعزّ ... وعلى القول نبرة الصنديد

قال: اني لها وان كنت غض الـ ... ـعمر فالسيف للعتاة بريدي

وإذا بالنبي يرسل قولاً ... رنّ في مسمع الزمان البعيد

((أنت مني ووراثي ووزيري ... وعلى الحوض انت بكر شهودي

وعندما تشتدّ المحنة ويموت ناصره وكافله وحامي رسالته وعندما ترحل زوجه الوفية المؤمنة، يتلقى الأمر الالهي بالهجرة في تلك الحادثة التي غيرت مسار التاريخ:

مات عم النبي ليث البوادي ... شيخ أم القرى وشيخ الحواضر

فمضى الشر ينحر الخير نحراً ... وتبارت الى الحمام الكواسر

بيّتوا للنبي ميتة غدر ... تحت سدل من عتمة الليل ساتر

ولكن علي ذلك الفتى المؤمن الشجاع يضحي بحياته من أجل أن يسلم النبي وتسلم الرسالة فيرقد في فراش الرسول ﷺ:

لـفّ بـرد الـنبي صـدر علـيّ   فالاطـار السـنيّ ضـم المفـاخر

رقـد الليـل ناعمـاً بفـراش   حشـوه المـوت فالوسـاد مخـاطر

ان ينـم في مضـاجع المـوت حبّـاً   بـالنبي العظـيم فـالله سـاهر

ويهاجر علي بعد أن أدّى الامانات الى أهلها:

هـزّه الشـوق للـنبي فشـدّ العـزم   يهفـو الى جمـاع المـآثر

صـابر في العـذاب والجـوع حـتى   عجـب القفـر مـن تقشـف صـابر

ويصف معاناة الهجرة في تلك الصحراء المليئة بالأخطار:

لا يـذوق الرقـاد الاّ غـراراً   فالافـاعي فحيحهـا نفـخ صـافر

لا فـراش سـوى الثـرى لا غطـاء   لا ضـياء سـوى النجـوم الزواهـر

ولكن علي يمضي قدماً غير عابئ بما يعاني ولا يفكر الاّ بسلامة ركب الفواطم وفيهن ابنة النبي فاطمة الزهراء ووالدته فاطمة بنت أسد:

يـا رمـال الصـحار هـذا علـي   فـاملئي الـدرب والضـفاف ازاهـر

هـو بعـد الـنبي اشـرف ظـل   لاح في السبسـب الخلـي مهـاجر

وابسـطي حولـه الزنـابق فرشـا   وانثـري فوقـه الغمـام مقاصـر

كـل مـا تبلـغ الـرؤى مـن جمـال   فتّحـت افقـه أمـانيّ شـاعر

وفي المدينة المنوّرة آخى الرسول المهاجر ﷺ بين المهاجرين والانصار ليصوغ في المجتمع الجديد تضامناً وتماسكاً وصفاً قوياً

كالبنيان المرصوص وترك علياً لنفسه فآخاه أمام الملأ العام؛ ومرّة أخرى يتألق اسم علي في سماء المجد:

لم يـوآخ الـنبي غـير علـيّ   حفنـةَ التـبر ادمجـت بالنضـار

وفجأة تنقلك الملحمة الى مكّة حيث ترى عاتكة عمة النبي ﷺ رؤيا مثيرة فتخبر أخاها العباس قائلة:

طـار قلـبي حلمـت أن نـذيراً   يـا لهـول النـداء والانـذار

شمتـه راكبـاً بعـيراً رهيبـاً   صـاخباً فـوق فحلـه الهـدّار

صـاح يـا غـادرين للمـوت هبّـوا   لقبـور تثاءبـت في انتظـار[١]

وما لبثت الاحداث أن فسرت الرؤيا فكانت معركة بدر التي مرّغت انف المشركين في مكة بوحل الهزيمة والعار.

ولقد كان لعلي السهم الأوفر في ذلك النصر الحاسم.

جـال في حومـة الـبراز علـيّ   جولـة الليـث في قطيـع الشـاء

يخسـف السـهل والجبـال ويبقـى   وعيـه الفـذّ في السـنى والصـفاء

وفي العام الثاني من الهجرة المباركة شهدت المدينة المنورة حادثة

---

(١) رأت عاتكة عمة النبي ﷺ راكباً اقبل على بعير حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا آل غدر الى مصارعكم ثم أخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوي حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها فلقة. كتب السيرة.

فرح كبرى بزواج علي بطل الاسلام من السيدة فاطمة لزهراء عليها السلام، وتصف الملحمة كيف جاء علي الى بيت النبي ليخطب فاطمة:

جاء بيت النبي والقلب خفق	*فهو في مثل رجفة البرداء*
قال: أني ذكرت فاطمة	*وأبث صوت مكبّل بالحياء*
فاجاب النبي: ابشر علياً	*خير صهر على الغبراء*

وفي نفس هذه القصيدة يصف الشاعر حادثة تكشف عن تأثره بها فقد جاء النبي صلى الله عليه وآله بيت علي في يوم بارد وكان علي وفاطمة وولداهما قد لجأوا الى فراش واحد ووضعوا ملحفة يستدفئون بها لشدّة الفقر والبرد فدخل صلى الله عليه وآله معهم تحت الملحفة وجاء جبريل وهم على تلك الحالة فتمنى أن يكون سادسهم[1].

وعلى جبهة النبي طيوف	*كوشاح الغمامة الدكناء*
لمح الغيب! يا لهول الليالي	*مرعدات بالنكبة الدهياء*
وكأن الجفون تنطق همساً	*((يا اله السماء من ابنائي))*

وتمرّ الأيام ويمرّ عام وكان المشركون الوثنيون يخططون للانتقام والثأر من الذين صنعوا النصر في بدر:

ترك النصر في النفوس ذحولا	*وبكاء مضرجاً وعويلاً*
كلما قارب الضرام انطفاء	*راح (صخر) يمدّ فيه الفتيلا*
زوج هند الدّ اعداء طه	*وأخسّ الانام خلقاً وقيلاً*

---

(١) السيرة الحلبية.

ويتوقف الشاعر ليصف شخصية أبي سفيان قائلاً:

قزماً كان في الرجال دميماً وزنيماً وقعدداً مهزولا

وتندلع المعركة وكاد النصر يتم للمسلمين ولكن حدث ما حدث فوق جبل الرماة فانقلب النصر الى هزيمة:

فتعادى الرماة للغنم والأسلاب والمال يبهر الضلّيلا

وتناسوا أمر النبي: ((النبل لا غيره يصدّ الخيولا))

ويتساقط المسلمون شهداء ويهوي حمزة عم النبي وأسد الله وأسد رسوله شهيداً، فتفترس هند كبده بوحشية أثارت غضب الشاعر الملحمي:

شحذت خنجراً وقامت اليه فر نصله قراباً جميلا

غاص في هيكل الشهيد وحال الحقد في جسم حمزة تمثيلا

أعملت ذئبة النساء بكبد الليث نابا لعل تشفي الغليلا

ويصف حزن النبي العميق لمصرع حمزة على هذا النحو المأساوي:

ذاب قلب النبي حزناً وغامت عينيه تشهد المصاب الجليلا

ورثاه محمد بدموع ظل جفن الزمان منها بليلا

ويرفع النبي ﷺ كفيه الى السماء يتضرّع الى الله الاّ يأخذ منه علياً بعد أن أخذ منه عبيدة في بدر وحمزة في أحد:

«لا تذرني يا خالق الخلق فرداً   صن علياً حسامي المسلولا

ويحدث تطور خطير في شبه الجزيرة العربية فقد بدأ اليهود يخططون للقضاء على الاسلام فكانت خطة الغزو التي تفتقت عن ذهنية مريضة حاقدة واستطاع اليهود بعد مؤامرات طويلة من اقناع قريش وتحريك اطماع قبائل غطفان التي حشدت وحدها ستة آلاف محارب وشهدت صحاري الجزيرة ولأول مرة جيشاً جراراً يربو على العشرة آلاف مقاتل، فكانت معركة الخندق الخالدة التي تألق فيها علي بن أبي طالب في سماء الفروسية ودنيا الأقدام والاستبسال وذلك عندما تمكن عمرو بن عبد ود وعدّة فرسان من اقتحام الخندق والعبور واضعاً مسار الحرب في اتجاه خطير للغاية.

وكان لابد أن يتصدّى له أحد وبالرغم من دعوات النبي ﷺ لمواجهة الفارس الوثني لكن أحداً لم يستجب باستثناء علي الذي انبرى اليه لتحدث معركة ضارية تنتهي بانتصار علي وانتصار الاسلام وكبر الجيش الاسلامي لهذا الانتصار الكبير الذي أدّى الى انسحاب الغزاة تاركين خيامهم الممزقة وخيولهم النافقة:

كبّر المسلمون لما رأوه   جبلاً ماد في خضيب دمائه

ضربة ذكرها يظل فتياً   بعد موت الزمان بعد فنائه

هابها الضيغمان كسرى وروما   وتغنّى الحادي بها في حدائه

وهكذا تتوالى الحوادث الملحمية الواحدة بعد الأخرى من التاريخ

الاسلامي؛ فتجد علياً يتألق عالياً في دنيا البطولة والبسالة والاقدام.

في خيبر وقد شعر النبي ﷺ بالغضب من تراجع وهزائم الفرق الإسلامية في هجماتها على حصون خيبر؛ فنادى في خطابه: سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. كرار غير فرار وتطلع المسلمون الى غد فإذا هو علي:

واذا بالرسول يرفع طرفاً ... ويشق السكوت لمعة صارم

قال اني سأعطي لوائي ... رجلاً راح مفرداً في الأوادم

ودعا أحمد علياً وقال: ... اليوم يوم اللواء يوم العظائم

وعلى يد علي سقطت قلاع خيبر الواحدة بعد الأخرى بعد أن صرع بطل اليهود مرحباً المدجج بالسلاح.

ويصوّر الشاعر مشهد القتال الضاري الذي دار بين علي ومرحب وذلك بعد أن هوى أخوه الحارث صريعاً بضربة من ذي الفقار.

فأتى مرحب أخوه يثير الأرض ... رعباً والجوّ رجْع زمازم

غاطساً في حديد درعين ... كانا نسج داود يوم طالوت حاكم

هزّ في كفّه المهند هزّاً ... يبعث الشيب في الغراب الداجم

ثم أهوى بضربة لعلي ... فأطار المجنّ من كف خاطم

وأذا بالأمير يخلع باب الحصن ... ترساً ويتقي ضرب قاصم

سمع الحصن مثل ولولة الزعزاع ... صوتاً والرعد يرفضّ هازم

فلق العضب هامة سيّجتها ... خوذة فوق صخرة وعمائم

ويصور الشاعر مشاهد رائعة من غزوة السلسلة التي كشفت عن عبقرية علي وشجاعته، وفي تلك الحادثة نزلت سورة العاديات؛ حيث مطلع السورة يصور بروعة مشهداً رائعاً لخيول الاسلام وهي تشنّ هجوماً كاسحاً: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

بلغ الثغر قبل أن يخضب الاصباح رأس التلال بالأنوار
((أعلموا الخيل)) قال للصحب ثم انقض كالصقر والشهاب الساري
يا لكرّ الخيول حين أغارت مرسلات سنابكاً في الحجار
موريات في النقع زنداً سخي النار ينبث هالة من شرار
أعلم الله عبده فتهامت سورة (العاديات) بشرى انتصار

ويظلّ بولس سلامة ممعناً في سبر التاريخ وتصوير البطولات فتبرز معركة حنين شاهداً آخر على مجد علي وفي تلك المعركة استبسل علي في الدفاع عن النبي ﷺ وصد هجمات المشركين الذين كانوا قاب قوسين أو أدنى من الوصول اليه:

ومشى ذو الفقار يلتهم الأتراس بريا والجوشن المسرودا
بالبطش الانصار فالأوس والخزرج نار لا تستطيع خمودا
ودعا أحمد لهم بدعاء صار في صفحة الخلود خلودا

أهل البيت

ويتغنى الشاعر بمجد أهل البيت وما بلغوه من شأن ومنـزلة في الانسانية:

عتـرة الطهـر يـا ورود الخمائـل ... عطّـري الجـو بالشـذا والفضـائل

يا شروق الأنـوار في غيهب الازمان ... ظلّـي علـى العصـور مشـاعل

ايهـا المركـب القـويّ شـراعاً ... سر على البحر لو تعالى جحافل

في حفـاظ الـرحمن تجـري ونـور ... الـروض يلقـاك في نعـيم السـاحل

* * *

أهـل بيـت الرسـول مـا زال منكم ... نحـو عـرش الـرحمن حبـل واصـل

حلقـات موصـولة برسـول الله ... شـدّت الى السـماء سلاسـل

إن علاكـم مـن دونكـم فجـلال ... المعـدن التـبر تحـت صـم الجنـادل

ويصل الشاعر بملحمته ليسجل يوم الغدير في قصيدة هي من أروع قصائد الملحمة:

عـاد مـن حجـة الـوداع الأخـير ... ولفيـف الحجـيج مـوج بحـور

لجّـة خلـف لجّـة كانتشـار الغـيم ... صـبحاً في الفدفـد المغمـور

ويصور في روعة ذلك اليوم الخالد؛ فإذا روعة شروق الرسالة في حراء يقابلها جلال في مغيب الرسول:

انـــزل الله آيـــة عقـــب ذاك ..... اليـــوم ختمـــاً لدينـــه المـــبرور

كـان ومـــج الشـروق يـوم حـراء ..... وجـــلال المغيـــب يـــوم الغـــدير

وتسجل الملحمة مشاهد خالدة من رحيل النبي ﷺ الى الرفيق الأعلى فلم تشهد المدينة المنورة فاجعة أشدّ من وفاة النبي ﷺ اذ تدفقت الجماهير الى الازقة والشوارع باكية منتحبة مفجوعة بالمصاب الجلل:

واحســـت جزيـــرة العـــرب ..... ان البـدر يمشـي في جوّهـا مشلولاً

شـــاحب اللـــون كالعليـــل بـــراه ..... الـــداء بريـــاً فـــردّه مهـــزولاً

رجّـــة هـــزّت الحجـــاز ومـــاد ..... القطـــر منـــها شـــوامخاً وســـهولا

كـل حـــيّ ســوى المهـيمن فـانٍ ..... ســـنّة الله لـــن تـــرى تبـــديلاً

يـــا دموعـــاً مـــن الـــدماء تلظّـــت ..... وتهامـــت علـــى الخـــدود شـــعيلا

مـــات مـــا بـــين فـــاطم وعلـــيّ ..... يـــالقطبين يشـــهدان الأفـــولا

ويتوقف الشاعر قليلاً في السقيفة تلك الحادثة التي اصبحت اساساً لحوادث زلزلت العالم الاسلامي وقادته الى المآسي:

وتوالــت تحــت الســقيفة أحــداث ..... أثـــارت كوامنـــاً وميـــولا

تـــارة تطلـــع الزعـــازع غربـــاً ..... وتهـــبّ النكبـــاء حينـــاً قبـــولا

وانجلــت عــن ضــياع حــق ولـيّ ..... كـــان الآ عـــن حزنـــه مشـــغولاً

ويمـوت الاسـلام في المهـد طفـلاً ..... شـــارقاً في نجيعـــه مطلـــولا

ويحصد المجتمع الاسلامي ما زرعته يداه يوم السقيفة.. وبعد ان أعرض عن وصية النبي ﷺ في يوم الغدير.. ها هو عثمان بن عفان يتربع على عرش الخلافة ويبدأ سياسة البذخ والإسراف وتسليط اقربائه على مقدرات البلاد؛ حتى أعداء الاسلام اللدودين تسنّموا في عهده ارفع المناصب، وكان علي عليه السلام لا ينفك ينصح الخليفة الثالث ويحذره من عواقب سياسته الخاطئة والخطيرة. ولكن عثمان لم يكن يصغي لأحد؛ بعد أن تحول الى العوبة بيد مروان بن الحكم وهو من ألدّ أعداء الاسلام القدامى:

أيه عثمان كيف جئت بوغد تستجير الأنوف من ادرانه

(حكم) كان خصم أحمد حتى ضجّ منه العداء في عدوانه

أموي في ألف لون مريب ودهاء الجرباء في ألوانه

وينتهي مصير عثمان الى مصرعه ويرفض المسلمون دفنه في أرض البقيع وهي مقابر المسلمين.

ويتغنّى الشاعر الملحمي بكفاح وجهاد شخصية شامخة في دنيا الجهاد والاستقامة والاصرار على الحق؛ ابوذر الغفاري عَلَم يخفق في دنيا الحقيقة والحق:

لأن قلب الصحراء من تسياره فعلى البيد مسحة من وقاره

اسمر بارز العروق نحيل أعمل البؤس نابه في دثاره

ويصف اللحظات الأخيرة من حياته في منفاه البعيد في تلك

الصحراء القاسية:

يـا لهـول المأسـاة أدمعـت الـ ـصحراء فالرمل دائب في جماره

أدرك القفـر أن في النـاس اكباداً تبذّ الصوان من احجاره

يـا أبـا ذر يـا حبيـب علـي وسمـير الرسـول في أسمـاره

ايهـا السـابق العصـور المجلّـي لم ترعـه السـهام في مضـماره

يـا أبـا ذر يـوم موتـك عيـد ان مـوت الشـهيد فجـر انتصاره

وبعد ثورة شعبية اطاحت بالخلافة الثالثة هتفت الجماهير باسم علي. يقول بولس سلامة في هامش ملحمته: ((زرع عثمان العوسج وها هو علي يدمي اصابعه في الحصاد)).

وغدت يثرب كبابل يوم البرج أهـوى على الصعيد رماداً

فبـالرغم مـن هتـاف الجمـاهير بخلافـة علـي الاّ أن المجتمـع الاسلامي آنذاك قد دخل مرحلة أخرى؛ مرحلة سادت فيها ثقافة حب الدنيا وأقبل الناس على الحياة الماديّة مستغرقين فيها الى حد ارتكاب الآثام.

وقد نسي بعض الصحابة البارزين ممن عاشوا مع الرسول ﷺ وعايشوا تجربته في البساطة اذا بهم بعد أقل من عقدين من الزمن يتحولون الى أثرياء يجمعون الذهب والفضة ويمتلكون مئات العبيد ومقاطعات واسعة من الأراضي الزراعية تسرح فيها قطعان الماشية:

ألــف النــاس لــذة البــذخ فالاكــ ـناف خضـر والأرض لانـت مهـادا

وعســير كــبح الجمــاح اذا مــا بطـــر المهـــر ناعمـــاً وتمـــادى

إن ردع التيـــار غـــبَّ انهمـــار الغيـث يطغـو فـيحطم الأسـدادا

دون ردع الهـــــوى بصـــــدر غـــويٍّ تيّمتـــه حـــلاوة فاعتـــادا

أي شرّ يلقى أبو الحسن الصنديد مـــن خبـــث رهطـــه إن حـــادا

زرع الشـــوك غـــيره فحـــرام ان يكـــون المعـــذّب الحصّـــادا

وهكذا اصبحت الدنيا جميلة أخاذة تبهر النفوس وتصرع العقول.

وسـرت في النفـوس موجـة اعجـاب بـــدنيا تبرّجـــت اعيـــادا

فتـــراءى ســـرابها بحـــر خصـــب وتـــراءى انينـــها انشـــادا

وفي غمرة هذا الخدر والافتتان بالحياة الماديّة بقي علي وحيداً يحاول تصحيح مسار الحضارة الإسلامية.

فـــالنفوس الكبـــار في كـــل عصـــر مفـــردات تفرّقـــت آحـــادا

يغـــرق الســـهل في الوصـــول، فمـــا ينجـو سـوى شـامخ تسـامى حيـادا

وتقع حوادث اليمة وكان الحزب الأموي بعد عصيان معاوية وتمرّده على الشرعية؛ قد أصبح محور الشرور واصبح اقليم الشام مركز المؤامرات ضد الشرعية، وينكث بعض الصحابة الذين أثروا من المال الحرام وغاظهم نهج علي الذي رفع لواء العدالة الانسانية؛ أجل نكثوا البيعة ورفعوا شعار الطلب بدم عثمان وهم في طليعة من اشتركوا في قتله ثم جاءوا يطلبون بثاره من علي.

واندلعت أول حرب أهلية وهي حرب الجمل وسقط فيها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى والمعوقين.

ويصف الشاعر مشاهد من تلك المعركة التي دارت رحاها في مدينة البصرة؛ فرسم صورة مؤثرة لعلي الذي علت وجهه شارة من الحزن لهذا الاقتتال الأخوي الفجيع:

وقف القائد الأمير كئيباً كوقوف الولهان بالاطلال

ذو الفقار المجيد عضب ولكن ودّه ان يجول غير مجال

قال لا تبدءوا العدو بحرب علّ فيهم افاقة من ضلال

واذا بالسهام من ضفة الاعداء تهمي تدفق الشلال

وبالرغم من دعوة علي الى الحوار ولكن كل خطواته السلمية وصلت الى طريق مسدود.. هنالك دعا علي ابنه محمداً وسلّمه راية الجيش العظمى وكانت راية رسول الله وقال:

- يا بني هذه راية ما ردّت قط ولا تردّ.. يا ابا القاسم قد حملت الراية وأنا أصغر منك.

واشتعلت ملحمة رهيبة من القتال الضاري انتهت بانتصار قوّات الشرعية.

ولم تندمل جروح الجمل العميقة بعد حتى بدأ معاوية التحضير لفتنة أكثر خطراً لقد كان معاوية يخطط لأول الحركة انفصالية خطيرة.

وكانت الأحداث تتسارع وتؤدي الى نشوب حرب أهلية أخرى سيكون لها بالغ الأثر في تغيير مسار حضارة الاسلام ومرّة أخرى ارتفع قميص عثمان ليمزق المجتمع الاسلامي ويستمر هذا التمزق الى يومنا هذا.

وكان أول انتهاك اخلاقي وانساني قام به معاوية هو احتلال مصادر المياه على نهر الفرات محبطاً أية فرصة للتفاهم والحوار.. ويصور الشاعر بولس سلامة هذا المشهد قائلاً:

ملك الماء عسكر الشام يبغي ان تجف الحياة في الظامئينا

فيموتون، مثلما تيبس الاو راق موت الكروم في تشرينا

يا لها من خساسة يا بن هند الم الطرس ذكرها تدوينا

وعندما تفاقمت الأزمة وظهر الوجه الحقيقي لمعاوية خطب علي في جنوده قائلاً:

((روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء؛ فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين)).

وشنت فرقة من الفرسان هجوماً كاسحاً انتهت بهزيمة العدو الغادر وتحرير مصادر المياه، وطلب بعضهم من علي أن يعاملهم بالمثل فرفض وأمر جنوده بأخذ ما يكفيهم من الماء والانسحاب وأعلن بان مسألة المياه لا علاقة لها بجوهر الصراع الدائر وانه لن يستخدم الماء سلاحاً في المعركة:

اقحم الخيل في الفرات كماة	*يركبون المنون اذ يركبونا*
وغدا الماء للامير فإن يعط	*فسمحاً وإن أبى فقمينا*
صانه الله ان يحاول نصرا	*بسوى السيف قاضباً مسنوناً*
فدعاهم (أن اشربوا) عفو حرّ	*قد أعاد الحياة للغادرينا*
شهد النهر ذلك اليوم شهماً	*كان ما شاء ربّه ان يكونا*
ولئيما تقاذفته الدنيا	*بل هو الدود منتناً أو دونا*

وفي غمرة المعارك الطاحنة هوى عمار بن ياسر ذلك الصحابي الذي اجتاز التسعين شهيداً وكان صائماً ذلك اليوم؛ وقد آلم مقتل عمار علياً عليه السلام فأعلن عن موعد لهجوم جرئ يستهدف احتلال مقرّ قيادة جيش الشام حيث يربض هناك الشيطان:

مصرع الشيخ فض صبر علي	*فبكى الصاحب الجليل الخدينا*
عمم الرأس بالعمامة السوداء	*وكانت ارث الرسول الثمينا*
وامتطى صهوة الجواد ونادى	*اين انتم معاشر المؤمنينا*
زغرد السيف ذو الفقار فلا	*يبغي قراباً الآ الكلى والوتينا*
ورأى الغاصب المهول ابن هند	*صيد فرسان جنده يُحصدونا*
فدعا بالجواد يبغي فراراً	*فأتى عمرو يوقف الهاربينا*

أجل كان معاوية يستعد للفرار ولكن عمرو بن العاص قام بخطوة شيطانية، برفع المصاحف ودعوة الجيش العراقي، لوقف العمليات الحربية والتحاكم الى كتاب الله!

وحدثت فتنة خطيرة في صفوف العراقيين وتوقفت العمليات وانتهت الحوادث الى مهزلة التحكيم؛ واضطر علي في كل ذلك الى الاستجابة بمرارة وألم وهو يعرف أن نهاية صفين على هذا النحو ستؤدي الى كارثة كبرى تحل بالاسلام والمسلمين:

فعل المكر في صحاب علي	*فاذا هم كموسج شائكونا*
فبديد الآراء، ظلمة ليل	*والنجوم الزهراء حالت دجونا*
ألجؤوه للصلح ما حيلة الملاّح	*إن تصبح المياه غرينا*
كلما هيّأ الشراع لسير	*أنبت الوحل حوله تتينا*

وكما فرض العراقيّون وقف الحرب على علي عليه السلام فرضوا عليه اختيار من يمثله؛ فقد اراد انتخاب عبدالله بن عباس لأنه يعرف ألاعيب عمرو بن العاص ولكنّ المتمرّدين فرضوا عليه انتخاب أبي موسى الاشعري ولم يكن الأشعري هذا مؤهلاً بكل المقاييس للتفاوض مع ممثل أهل الشام.

واصبح مصير العالم الاسلامي في ايدي اثنين أحدهما ثعلب ماكر وآخر ((؟)) يحمل أسفاراً؛ وما أسرع أن وقع الأشعري في شراك ابن العاص[1].

---

(١) بعد أن تمت مهزلة التحكيم ((قال ابو موسى: يا عمرو انما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. فقال عمرو: انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفاراً)). تاريخ الطبري ٥/٦٧ ـ ٦١، أنساب الأشراف ص٣٥٠ ـ ٣٥١، تاريخ الاسلام للذهبي ص٥٥٠ ـ ٥٥١، الخبار الطوال ١٩٩ ـ ٢٠١.

قال هذي الحروب قد هدّت الاسلام هدّاً فصار جسماً كليماً

قالها عمرو وهو يعلم قلب الشيخ فالطل قد اصاب الكروما

فرح الغرّ فرحة العانس العذ راء تلقى عروسها الموهوما

وتمزّق العالم الاسلامي وأصبح الناس ولهم خليفتان خليفة شرعي في العراق والحجاز واليمن وسائر الاقاليم وخليفة جاء بالخداع والمكر والحيلة يحكم في الشام. ثم بدأ معاوية في شن الغارات على الاقاليم ومحاولة السيطرة عليها؛ فسقطت مصر في قبضته وتعرضت بعض الاقاليم الى غارات وحشية وارتكب فيها أهل الشام مجازر رهيبة نفذها قادة عرفوا بالبطش والقسوة والدموية.

وتحت عنوان ((الحلم الاخير)) نجد بولس سلامة ينتحب بصورة مؤثرة جداً وهو يصف اللحظات التي سبقت اغتيال الامام علي عليه السلام في ذلك الفجر الحزين:

أرق الليل لا يذوق المناما غير ما تخطف العيون لماما

ليلة تصبغ النجوم بلون الهمّ حتى الظلام يخشى الظلاما

كانت ليلة رهيبة لم يذق فيها الامام النوم الاّ قليلاً؛ لقد احسّ بما سيحصل غداً وسوف تخضب لحيته بدم رأسه كما نبّأه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي تلك الليلة رأى علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله في الحلم فشكى له علي ما يعانيه من جماح هذه الامّة التي نسيت مبادئ الرسالة واستغرقت في حب الدنيا:

وتـراءى لـه الرسـول كضـوء الـ ـفجر يلقي على الرياض سلاما
غبطـة لم ينـل سـواها علـيّ منـذ مـات الرسـول الاّ مناماً
واذا أشـقت الحيـاة كريمـاً يسـتطيب المنى ولـو أحلامـا
وشـكا للرسـول شـعباً عقوقـا عـاد اعمى أو مبصـراً يتعامى

وفي ذلك الليل البهيم كان هناك ثعبان يتلوّى كامن في المسجد ينتظر قدوم علي للصلاة:

ذلـك الليـل لـفّ صـلاً وافعـى خـارجيين يشـحذان الحسـاما
مشـرقياً يفـي صـداق ((قطـام)) لعـن الله (ملجمـاً) و(قطامـا)

وفي الفجر وفيما كان علي يتمتم بالصلاة هوى سيف الغدر والجريمة على رأسه وهوى علي شهيداً مضمخاً بالدم وهو يهتف: ((فزت وربّ الكعبة)).

ونجد بولس يتغنى بالمشهد البطولي لعلي وهو يهتف بهذه النهاية الدامية. لقد قدّر لعلي عليه السلام أن يولد في الكعبة وكتب له أن يختم حياته المليئة بالجهاد والامجاد في بيت من بيوت الله في مسجد الكوفة:

يـا صـلاة الختـام في المسـجد المحزون طيرى الى السماء ضراما
واعـدّي لـه المكـان رفيعـاً وافرشـي الـورد حولـه أكوامـا
لم ينـل في الحيـاة الاّ عـذاباً فاملئيـه هنـاءة وسـلاما
مسـجد كـان مهـده يـوم جـاء الكـون فاسـتقبل الحطـيم اماما
لاح في مكـة هـلالاً وليـداً وهـوى في العـراق بـدراً تمامـاً

ويواصل الشاعر الملحمي بكاءه في قصيدة لاحقة يرثي بها الشهيد:

يـا أمـير البيـان نهـج بحـر	*تتلاقـى الأرواح في اثنائـه*
متعـة السـمع والقلـوب رواءً	*وزئـير الأقـدار في انوائـه*
جهـش المسـجد اليتـيم بكـاءً	*حـين غـاب الامـام مـن فقهائـه*
وبكـى الشـط والفـرات وغاضـت	*زقزقـات الهـزار في غينائـه*
يـا لـواء المهـاجرين سـلاماً	*مـن روابي لبنـان مـن اندائـه*
مـن صـفاء الـثلج الطهـور مقيمـاً	*مـن الاعـالي بصـيفه وشـتائه*
ومـن الآس والـورود عـبير	*طيّـب الضـفتين مـن أودائـه*

ولم ينس الشاعر الذي فرغ لتوّه من رثاء علي ان يصف شخصية عدوّه اللدود معاوية، ذلك الطليق الذي استطاع ومن خلال آلاف الدسائس والمؤامرات أن يثبت حكمه الغاشم في الشام، ثم يتطلع الى الخلافة وهي محرّمة على الطلقاء.

ومن مهازل التاريخ أن يسبّ علي فوق منابر المسلمين ويمجد معاوية! يقول الشاعر وقلبه يعتصره الألم:

هـزل الـدهر يـا لجـور الزمـان	*وهـوت للتـراب غـرّ الأمـاني*
فـذوى فـرع هاشـم وتسـامى	*عبـدشمس وثبـاً الى الصـولجان*

ويستعرض الشاعر جرائم معاوية بحق الانسانية وما تسببه في انحطاط العالم الاسلامي روحياً بعد أن سلّط على مقدرات البلاد

والعباد الأشرار والطواغيت؛ وكانت جريمته الكبرى في تمهيد الأوضاع لخلافة ابنه يزيد؛ فتحولت الخلافة الإسلامية الى ملك تتوارثه علوج أمية.

ان تربّع يزيد العرش كان اكبر مأساة في تاريخ.

ذلك الشاب المترف السكير والنزق الذي يقضي معظم وقته بمعاقرة الخمر وملاعبة قردته وكلابه، ويتهكم الشاعر من هذا الوضع البائس فيقول:

رافع الصوت داعياً للفلاح ... أخفض الصوت في أذان الصباح

وترفّق بصاحب العرش مشـ ... ـغولاً عن الله بالقيان الملاح

ألف الله أكبر لا تساوي ... بين كفّي يزيد نهلة راح

وفي غمرة هذا الانحطاط والخنوع كان لا بدّ للحسين بن علي أن يصرخ بوجه الطاغية قائلاً: لا.

وسار الحسين في طريق الثورة وها هو يغادر مدينة جدّه في هجرة تاريخية تستهدف تصحيح الأوضاع وتغيير الواقع الفاسد:

من هنا مرّ أحمد وعليّ ... بعده والرمال تشوي الساقا

شام وجه السماء يقطر نوراً ... مفعم السكب ماطلا غيداقا

لاح فيه محمد وعلي ... وكأن النبي حث البراقا

لقد هاجر جدّه الرسول من قبل وهاجر أبوه ومعه ابنة الرسول السيدة الزهراء:

وها هو الحسين يسلك ذات الطريق.

وتنادت الله اكبر تلك البيد *هذا مثلث يتلاقى*

وفي مكة حيث حلّ الحسين مقيماً بدأت عشرات بل مئات الرسائل ترد من الكوفة كلها تطلب منه القدوم على وجه السرعة من أجل الثورة ويشكون اليه ظلم الحاكمين:

كتبوا للحسين أقدم علينا *إن حكم النعمان مرّ مذاقا*

يا بن بنت الرسول أقدم *وفي صحبك تمشي ملائك اجواقا*

واغثنا ان جور يزيد *بث فينا الشقاء والاملاقا*

حنّ ماء الفرات يا ابن رسول *الله شوقاً، متى تغيث العراقا؟*

وتدخل ملحمة الشاعر الراحل فصولاً مثيرة عندما يصف مشاهد رائعة من بطولات مسلم بن عقيل سفير الحسين الى الكوفة لتعبئة أهلها ضد النظام الأموي الغاشم.

فيصف رحلة مسلم الشاقة في اختراق الصحراء وكيف مات دليلاه عطشاً:

ففدا مسلم شريداً وحيداً *تائه اللب جاحظ النظرات*

تحصب الريح وجهه، فأديم الأرض *نار صخرية الجمرات*

ولكنه يصل بعد معاناة مريرة وينجح في تعبئة الرأي العام للثورة.

ولكن الكوفة سرعان ما غدرت وتراجع انصار مسلم ليتركوه

وحيداً يواجه مصيره.

وبعد معركة بطولية خاضها مسلم وحيداً أمام مئات من جلاوزة النظام وعندما اثخن بالجراح عرض عليه الأمان فاستسلم وانتزعوا سيفه فدمعت عيناه.

وصمد مسلم ولم يبد أي ضعف في مواجهة عبيدالله بن زياد فقد كان هدف مسلم أن يبلغ سيدنا الحسين بآخر التطورات وينصحه بعدم القدوم الى الكوفة.

أسند الليث رأسه لجدار مسبلاً جفنه على تسكاب
أو تبكي؟ قالوا له وسخيّ الدمع وقف على ذوات النقاب
أو أنت الصنديد تدمع عيناً ولعيناك من نسور صلاب
قال أني بكيت سبط رسول الله يأتي وفي يديه جوابي
مطمئناً لعهد من غدروني لم يحذّر من غدرة وارتياب
فأكون الذي قتلت حسيناً ساطراً حكم موته في كتابي
من يقل للحسين عني الا ارجع خلت الغاب من أسود الغابِ
ليس فيها سوى الثعالب والحيّات همّت بلسعة وانسياب

أجل لقد خلت الكوفة من الرجال الرجال فقد زُجّ بهم في السجن وأعدم بعضهم وفي طليعتهم هانئ بن عروة الذي رفض رفضاً قاطعاً تسليم مسلم بن عقيل قائلاً: لا والله لا أفعل ذلك أبداً. ولو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه فضربه عبيدالله بن زياد بالقضيب على

وجهه؛ ولم يزل يضربه حتى هشم انفه وسالت الدماء على ثيابه وانتثر لحم خدّيه وجبينه؛ وهو ملتزم الصمت يأبى أن يدلّ على مسلم وحاول انتزاع سيف شرطي قريب منه ليقاتل به ولكنه أخفق وسيق الى الاعدام.

فسجل موقفه البطولي الخالد وليقترن اسمه مع مسلم ويكون جزءً من ملحمة عاشوراء.

صمت الصابر الشهيد. فان	*المجد يأبى مذلة الآهات*
كادت العين تحسب الشيخ لولا	*وابل من جراحه الداميات*
ذيل طود او مارداً من رخام	*دمّمته اصابع النحّات*
انما الصمت في النوائب اسمى	*درجات السمو والغايات*
ان سقراط يشرب السمّ، جباراً	*عزوفاً عن مهرب ونجاة*
فوق ما يبلغ الخيال مقاما	*في ذرى الخالدين والخالدات*

وبدأ عهد الرعب والدم وكانت خيول الدوريات تجوس ازقة الكوفة الغارقة في الظلام وتساقطت رؤوس كثيرة الى أن خنعت الكوفة واستسلمت للطاغية:

فتح الموسم الرهيب (عبيدٌ)	*فقطاف الرؤوس فصل آنا*

ويشعر القارئ وهو يتقدم في الملحمة بارهاصات المأساة التي ستحدث على شطآن الفرات.

في ذي الحجة الحرام من ٦٠ هـ يستجيب سيدنا الحسين

لصرخات الاستغاثة القادمة من العراق ويقرر التوجه الى مدينة الكوفة عاصمة الأقليم العراقي ويتوجس الكثيرون الخطر في هذا الرحيل وينصحه الناصحون.

وأتاه ابن عمه نجل عباس — نصوحاً يقول ردّ الجمالا
إن تمت يا حسين تطفئ سرا — جاً هاشمياً أخوه بالأمس زالا
انما الجوّ قاتم، وأخاف الريح — نكباء تستبيح الذبالا

غير أن الامام الحسين وهو يدرك الخطر كان لا يفكر الاّ في تحطيم طوق الخوف الذي أرعب امة جدّه ودفعها الى الخنوع للطاغية:

فأجاب الحسين: تعلم عبدالله — اني ما رمت جاهاً ومالا
بل حفاظاً على شريعة جدّي — إن ليل الآثام والبغي طالا
ضجّت الأرض من شرور يزيد — فهي بحر مزمجر يتعالى

وفي الطريق الصحراوي سمع الحسين عليه السلام هاتفاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسري اليهم:

سمع السبط هاتفاً علوياً — ينقل الجرس عن لهاة الثكالى
قال: يا سائرين شطر المنايا — عجلوا فالخلود يشكوا الملالا
أترع الكوب والارائك صفّت — وتهادت حور الجنان دلالا

ويمعن الشاعر الملحمي في وصف محطات عاصفة؛ حيث سيدنا الحسين وابناؤه واصحابه وأهل بيته ما يزالون يقطعون رمال

الصحراء.

وكانت الانباء المؤسفة تتوالى من الكوفة.

وقد كان كثير من الناس يرافقون الامام الحسين واثقين من أنه سوف يتقلد زعامة الكوفة بعد أن بايعه أهلها ولكن الامام اوقفهم على حقيقة ما يجري وأخبرهم بالتطورات الأخيرة ومع ذلك فقد صرّح لهم بحقيقة كبرى عندما قال: من لحق بنا استشهد ومن تخلف عنا لم يبلغ الفتح!!

سوف تبكي على الحسين البواكي	*ويرى كل محجر شلاّلا*
ليت شعري لم البكاء؟ وذاك	*اليوم عيد يشرّف الاجيالا*
مأتم القاتلين! لا مأتم القتلى	*يسيرون للخلود عجالى*

وسوف يكتب المجد لدم الشهيد الى الأبد:

سيكون الدم الزكي لواءً	*لشعوب تحاول استقلالا*
ينبت المجد في ظلال البنود	*الحمر يهوى نسيجها سربالا*
فإذا الاعصر النؤومة تصحو	*من كراها وتحمد الغزّالا*

وتدخل الملحمة فصلاً مثيراً جداً بوصول قافلة الحسين ارض كربلاء قريباً من نهر الفرات وهناك تحدث الملحمة الكبرى ويطل يوم عاشوراء ليصبح فيما بعد أطول يوم في التاريخ.

وستصبح هذه البقعة من أرض الله مناراً يضيء الطريق للأحرار في العالم.

ويصف الشاعر تدفق أهل الكوفة الى كربلاء لقتل سبط النبي وريحانته.. وهو في الواقع آخر الأسباط في تاريخ الانسانية.

وسرعان وما وجدت القافلة نفسها محاصرة بآلاف الذئاب:

قال: ما هذه البقاع فقالوا كربلاء فقال: ويحك دارا

ها هنا يشرب الثرى من دمانا ويثير الجماد دمع العذارى

بالمصير المحتوم أنبأني جدّي وهيهات ادفع الأقدارا

إن خلت هذه البقاع من الازهار تمسي قبورنا أزهارا

أو نجوماً على الصعيد تهاوت في الدياجير تطلع الانوارا

الجيوش التي أحدقت بالفرات تسدّ الأفق. تموج كالسيل.. كلاب مسعورة وذئاب تريد الفتك، قبائل وحشية اسكرتها نشوة السلب والنهب.. ما عساها تفعل القافلة في مهب اعصاب فيه نار؟! سبعون سنبلة خضراء تحدق بها اسراب الجراد:

وتوالت جحافل ابن زياد دفقة النهر طاغياً هدّارا

وأحاطوا بحفنة من رجال ونساء مروّعات حيارى

ووقف الامام الحسين خطيباً أمام الألوف يحذرهم مما هم مقدمون عليه من العدوان؛ كما ذكرهم بمنزلته وأنه سبط النبي ونجل الوصي وابن فاطمة الزهراء وحفيد خديجة الكبرى:

وقـف الظـامئ الحسـين ونـادى — يـا جنـود العـراق عُـو كلمـاتي

أو لـيس الرسـول جـدي وأمـي — خـير بنـت وأطهـر الزوجـات

واسمها يمـن كـل فاطمـة في الار — ض تـأتي في الأعصـر المقـبلات

أمهـا جـدّتي خديجـة كانـت — وردة المشـرقين في السـيدات

أو لـيس الضـرغام حمـزة عمـي — أسـد الله، كاشـف الكربـات

أو لـيس الشـهيد جعفـر عمـي — لقّـن الـدهر آيـة في الثبـات

أو لسـت الحسـين نجـل علـي — وعلـيّ انشـودة للهـداة

ولقد ابدع الشاعر في ترجمة نص الخطاب الحسيني الخالد الى مفردات شعرية وصوره جميلة أخاذة:

ثم سـلّ الحسـين سـيفاً عجيبـاً — عرفـوه لمـا بـه مـن شـيات

قال هذا الحسام سيف رسول الله — ارثـني إن تنكـروا حرمـاتي

وارامـم عمامـة عرفوهـا — اشـرقت فـوق اشـرف الهامـات

هالـة دون قـدرها تـاج كسـرى — وحلـيّ الملـوك مجتمعـات

لـيس غـيري في الارض سـبط نـبي — فلمـاذا تطفـون نـور الهـداة

كـذّبوني اذا قـدرتم فنـور — الشـمس دون الوضّـاء مـن بيّنـاتي

فأجـابوا جمـيعهم: قلـت حقـاً — أنت ما قلت من الوصي وصفات

ويرى الحسين رؤيا.. لقد رأى جدّه المصطفى وأمه وأباه وعمّه وأخاه وهم جميعاً مستبشرين بقدومه ويطلع أخته زينب على تلك

الرؤيا:

انني قد رأيت جدّي وأمي   وأبي والشقيق في الجنّات
بشروني أني اليهم ساغدو   مشرق الوجه طائر الخطوات
فبكت والدموع في عين أخت   نفثات البركان في عبرات

ولأن المطلوب من كل ذلك الحشد الهائل الذي كان يموج كالسيل هو رأس الحسين عليه السلام لذلك ما أن حلّ المساء ونشر ستائره وراحت النجوم تومض في أغوارها السحيقة.. حتى جمع أصحابه وأهل بيته وقال لهم: أنتم في حلٍّ من بيعتي وعرض عليهم مغادرة كربلاء وتركه وحيداً يواجه مصيره بمفرده:

ودعا صحبه فخفّوا اليه   ففدا النسر في اطار البزاة
قال اني لقيت منكم   وفاءً وثباتاً في الهول والنائبات
حسبكم ما لقيتم من عناءٍ   فدعوني فالقوم يبغون ذاتي
وخذوا عترتي وهيموا   بجنح الليل فالليل درعكم للنجاة
إن تظلّوا معي فان أديم   الأرض هذا يغص بالأموات

ولكنهم جميعاً أثبتوا وفاءً قلّ نظيره ورفضوا رفضاً قاطعاً تركه وحيداً واصبح الموت مع الحسين أحلى من الشهد والحياة بغيره علقم مرّ لا يطاق:

هتفوا يا حسين لسنا لئاماً فنخلّيك مفرداً في الفلاة
فتقول الاجيال ويل لصحب خلّفوا شيخهم أسير الطغاة
ستراها غداً نشرّف حدّ السيف حتى يذوب في الهبوات
ليتنا ياحسين نسقط صرعى ثم تحيا الجسوم في حيوات
وسنفديك مرّة بعد أخرى ونضحّي دماءنا مرّات

وتصل الملحمة الى نهاياتها فيصور صبيحة العاشر من المحرّم حيث وقعت الملحمة الكبرى وقد تجمعت في السماء النذر وارهاصات حرب مدمّرة تتراكم كأكوام من الغيوم المشحونة بآلاف الصواعق..

وكان فجر ذلك اليوم الطويل يشبه رماداً ذرّته الريح فيما كان الفرات ما يزال ممعناً في جريه والقبائل تموج تحلم بالاسلاب.

خفق السهل رعدة واضطرابا فالكائنات ملّت النشّابا
ورمته الى النحور بريداً دموياً وقاتلا خضابا

وانهمرت السهام كالمطر فقال الحسين لاصحابه:

قوموا رحمكم الله الى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم اليكم.

ويهب الرجال وقد كانوا ينتظرون على أحرّ من الجمر.

كيف أصبح الموت أمنية لهم؟ كيف أضحى في نظرهم خلوداً؟ وكيف تحولت الصحراء اللاهبة الى جنات تجري من تحتها الانهار؟!

يـا رجـال الحسـين! قـال حسـين ... ظمـئ السيف فامحضـوه الشـرابا

لا تهينـوه بالاطـاريف يبريهـا ... فعهـدي بـه يحـب الرقابـا

وتأزف ساعة الرحيل وكان آخر الاسباط في التاريخ يجيل عينيه المتألقتين في الرمال الممتدة حتى الافق البعيد.. نساء وأطفال خرجوا من بين الخيام والعيون الحزينة تتطلع الى آخر الرجال..

لقد رحل أنصاره بعد أن سجّلوا للاجيال اكبر ملحمة في الوفاء!

والى جانب خيمة جلس الحسين وفي احضانه طفل رضيع له عدّة شهور فقط كان الطفل ظامئاً يبحث عن قطرة ماء يروي بها قلبه الصغير:

حضـن الطفـل نجلـه وهـو عبـد ... الله عبـد ضـمّوا اليـه السـماءا

جـدّه شـرّف العروبـة قـدراً ... واسمـه الفخـم شـرّف الاسمـاءا

أي طفـل؟ كـأن الـوردة الحمـراء ... جفّـت لم تشـرب الانـداءا

في صـفاء الشـمع المـذاب جـبين ... كلمـا الحلـم مـاج فيـه اضـاءا

وعندما يطلب له قطرة ماء ينطلق سهم غادر يصيب الطفل في رقبته الرقيقة وتسيل دماؤه الوردية ويغمض عينيه، بينما كانت يده الصغيرة تمتد خارج القماط تستفهم التاريخ والحضارة والانسانية!

واذا في الفضـــاء ســـهم يصـــكُّ — السـمع صـكّاً ويجـرح الاصـداءا
شــق نحـــر الـــذبيح فانـــدفق — المرجـان، يكسـوه حلّـة حمــراءا
قلبـه سـال في يديـه فـلا يـدري — أقلبـــاً أراقـــه أم دمـــاءا

وبعد أن يضع الحسين طفله الرضيع في خيمة القتلى والشهداء من أهل بيته بدأ استعداده للهجوم وحيداً على آلاف الذئاب التي كانت تعوي لقتل ابن النبي:

أصـبح السـبط مفـرداً بـين أمــ — ـوات وكـانوا غصـونه الخضـراءا
دوحـة في العـراء تلفحهـا الرمـ — ـضاء والـريح صرصـراً نكبـاءا
نظـر السـبط للخيـام طـويلاً — مسـتميتاً يـودع الاحيـاءا
هـاجموه، فقبـل السـيف اجـلالاً — لـذكرى اشـاوس عظمـاءا
ذكـر الجـدّ والأب الفـارس المغـوار — فـاهتزّ سـيفه كبريـاءا
قـال يـاذا الفقـار آيـد يمينـاً — لم تعـوّد الاّ العلـى والسـخاءا
تتغنّـى بهـا الحـداة افتخـاراً — فتـورّي سـيوفهم والحـداءا
لم يشـاهد مثـل الحسـين شـجاعا — وصـبوراً يغالـب الأسـواءا
ظامئـاً ثـاكلاً، لهيفـاً — جريحـاً في عـدوّ يكـاثر الـدأماءا
صـفوة الاكـرمين في كـل عصـر — ضـمروا في ديـارهم غربـاءا
فالجمـاهير تخنـق العبقـري الحـرّ — خنقـاً وتعبـد الغوغـاءا

ويسطر الحسين أروع ملحمة في القتال والاستبسال والاقدام ولم

يثبت له أحد.

من أجل هذا طلب قائد الجيش من الجميع الابتعاد واستخدام السهام والنبال فجاءته آلاف السهام كالمطر وغاص في قلبه سهم له ثلاثة رؤوس ولم يستطع انتزاعه فدفعه ليخرج من قفاه وانهمر الدم كالميزاب..

وهناك هوى الحسين فوق الرمال وكانت عشرات الجراح تنزف دماً عبيطاً:

مالت الدوحة الرفيعة فانها رت قواما وهزت البيداءا

الحسين ينوء بنفسه.. الروح العظيمة تتسرب من أفواه الجراح.. تغوص في الرمال.. تبثّها اسراراً.. توقظ فيها مدناً نائمة..

القبائل مفتونة تدور حول آخر الاسباط وقد زلزلت الارض زلزالها.

وحانت لحظة رهيبة عندما صعد الشمر الذي يجسّد انحطاط الانسان ومسخه وتحوله الى ما هو أسوأ من الخنزير.. أجل صعد الشمر وارتقى صدر الحسين:

وانبرى الشمر يذبح السبط ذبحاً ليت كانت يمينه شلاءا

فصل الرأس عن قتيل شهيد فعن الشمس قد أزال الضياءا

ويشعر القارئ ان الشاعر الملحمي يبكي وينتحب وأن الابيات الاخيرة من ملحمته تظهر منقوعة بالدموع مضمخة بدماء الشهيد.

ويستمر الشاعر في وصف مشاهد مروّعة وما وصل اليه اولئك الاوغاد من انحطاط وتجرّد من كل ما يمت الى الانسانية:

رأس الحسين فوق رمح طويل.. أما جسده الطاهر المبضع فقد أنبرت اليه عشرة خيول لترضَّ صدره.

أوطأوا الخيل ظهره فاستعاذ الصلب وانقضّت الحنايا التواءا

أنعال الافراس داست حسيناً يا بن سعد هلا قضيت حياءا؟

ويقف الشاعر اجلالاً أمام زينب رمز الصبر وتحمل ما لا يطاق.. تتقدم نحو جسد أخيها الطاهر المبضع ثم تضع كفيها تحت الجسد المجرّح وتنظر الى السماء قائلة: اللهم تقبل منّا هذا القربان:

زينب الطهر والبهاء أفاض الله فيها من السماء البهاءا

إيه أخت الحسين بنت علي حمّلت ما يزلزل البطحاءا

أقسم الدهر أن ينالك بالار زاء حتى يستنفد الارزاءا

نال قلب الزهراء منه كلوم وهو ما انفك يجرح الزهراءا

فاصبري فالحياة دار عذاب حسبك الخلد جنّة فيحاءا

كل ايامها ربيع مقيم يكسف القيظ بهجُهُ والشتاءا

ويصف الشاعر بولس سلامة المشهد الاخير من تلك المأساة عندما جنحت الشمس للمغيب ليرسم لوحة غارقة في الحزن.

لقد فرّت الشمس.. توارت خلف الأفق المضمخ بحمرة قانية

واشرق القمر دامياً كعين تنتحب.

القبائل ما تزال تعصف بالخيام تضرم فيها النار، والنار تمدّ السنتها كأفواه جائعة أصابها مس من الجنون.

الذئاب تعوي تملأ الفضاء وقد تراكمت الظلمات بعضها فوق بعض واصطبغ الفرات بلون قان:

يا ضياء الغروب في كربلاء — دونك الشمس في الغروب ضياءا

كيف باتت والكواكب الضخم يهوي — مثلما تسقط الجبال انكفاءا

صبغ النهر قانياً وتدلّت — شجرات تكاد تلقي الضياءا

ارسل العندليب شجو جريح — واستحرّت فيه الدموع دماءا

وهو لو تعلم الغصون نواح — بثّ فيها الأسى بعاشوراءا

وتكاد تحس بان الشاعر يقف على جسد الحسين ويرثيه باكياً ويتغنّى بمجده وبسالته:

يا ابن بنت الرسول حسبك فخراً — انك السبط شرّف الشهداءا

دمك السمح يا حسين ضياء — في الدياجير يلهم الشعراءا

أيّ فضل لشاعر. منك يعتام — اللآلي، يصوغ منها رثاءاً

ويغادر موكب السبايا والعيون الحزينة تتلفت الى اجساد متناثرة فوق الرمال كنجوم منطفئة.. وساد صمت رهيب ما خلا أنين خافت ينبعث من اعماق الأرض الحزينة المصبوغة بلون ارجواني.

اقفــرت كــربلاء الاّ مــن القتلــى ومـــن غيمـــة بلـــون الحـــداد
تنشـــر الظـــل فـــوقهم وتقـــيهم منسـرَ الطـير او ذئـاب البـوادي

ويصف الشاعر منظر رأس الشهيد سيد الشهداء على رمح طويل وهو يطوف المدن:

طيـف بالهامـة الشـريفة، فـوق الـرمح، معروضـة علـى كـل رامـق
رفعوهـا علـى القنـاة وراح الجنـد مــن خلفهــا يســير فيــالق
مشـهد آلم العيـون وبـثّ النـار فيهــا، فالــدمع جمــر حــارق
مشـهد جـرّح النـواظر، والاجفـان لا تحضـــن الـــدخان الخـــانق
مشـهد آلم الصـخور، فمـا أحـراه ان يشـــتوي قلـــوب العواتـــق
يـا سمـاء العـراق ايـن صـراخ العـدل يسـتمطر النجـوم حرائـق

ويستحيل رأس سيد الشهداء الى رمز للثورة على كل اشكال الظلم والاستبداد:

ايهـا الـرأس طبـت حيّـاً وميتـاً وألفــت العلــى ورمــت الشــواهق
كنــت رأس الأبــاة حيّــا ورمــت المجـد ميتـاً فصـرت رأس البيـارق
فجـــلاك الممـــات بنـــد خلـــود وروتــك الــدهور ســفر حقــائق

لقد كان الحسين في حياته نبعاً للخير واستحال بعد استشهاده الى طريق للحرّية والكرامة الانسانية!

شيمة المصلحين يمشون في الدنيا   على شفرة الحسام الفالق

فاذا يتركونها يتركون الكون   روضاً بالخير والفوح عابق

ويعود الشاعر بملحمته الرائعة ليتغنّى بعلي ذلك ان ملحمة الحسين بكل ما لها من عظمة ومجد وشموخ انما هي شعاع من روح علي:

يا عليّ العصور هذا بياني   صغت فيه وحي الامام جليّا

أنت سلسلت من جمانك   للفصحى ونسّقت ثوبها السحريا

يا أمير البيان هذا وفائي   احمد الله أن خلقت وفيا

يا أمير الاسلام حسبي فخراً   انني منك مالئٌ أصغريا

جلجل الحق في المسيحي حتى   عدّ من فرط حبّه علويّا

أنا من يعشق البطولة والالهام   والعدل والخلاق الرضيا

فإذا لم يكن عليّ نبيّاً   فلقد كان خلقه نبويّا

وهكذا تنتهي ملحمة الشاعر بولس سلامة تغنى خلالها برموز خالدة لأنها لم تكن لفئة من الناس دون فئة ولا لشعب دون شعب ولا لأمّة دون أمّة ولا حتى لعصر من العصور دون عصر، ولا لحضارة دون أخرى وانما هي للانسانية جمعاء وعلى مرّ تاريخها الطويل.

الفصل الثاني

بولس الانسان

خلجات ورؤى

انه لمن الضروري الاطلاع على آثار الأديب والكاتب القدير بولس.. ذلك ان بولس لا يمكن التعرف عليه الاّ من خلال آثاره وليس هناك من أثر، يمكن أن يكون صورة أمينة وواضحة عنه، انه موزع بين آثاره بل وموزع بين الصفحات السطور..

على أن ((مذكرات جريح)) قد اختصت بالنصيب الأوفر فقد صوّر كثيراً من خلجاته وعبر عن كثير من رؤاه.

وأول ما ينتاب المرء وهو يتصفح مؤلفات بولس هو شعور بقدر من الدهشة لهذا المسيحي الذي يتغنى بشخصية بطل اسلامي هو الامام علي.. لا بسبب البون بين المسيحية والاسلام أو الفاصل الذي يفصل بين عالمين، ذلك أن الامام علي ليس بطلاً للشيعة فقط ولا للأمة الإسلامية وانما هو بطل للانسانية جمعاء.. وليس بدعاً أن يصفه أديب مسيحي آخر هو جورج جرداق بأنه صوت العدالة والانسانية.

غير انه شعور ينتاب المرء بسبب اكتشاف المسيحي لرمز انساني في دنيا الاسلام.

ويبدو تأثر سلامة بشخصية الامام علي عليه السلام الانسانية واضحاً

وأنك لتشعر بالهزات الوجدانية في كلمات بولس وهو يتحدث أو يصف أو يعبر عن شخصية علي عليه السلام وحسبك أن تطالع ملحمة ((عيد الغدير)) لترى كيف يتغنى بولس بتلك الشخصية الانسانية الفريدة.

حتى في ملحمته الأخرى ((عيدالرياض)) والتي اثارت استغراب الكثيرين نجد بولس يعبّر عن حبّه لعلي بشكل أخاذ.

لنصغ اليه وهو يتحدث بنفسه عن بواعث تأليفه ((عيد الرياض)) ويرد على المستغربين:

صحّت عزيمتي على نظم ملحمة ((عيدالرياض)) بعد ملحمة ((عيدالغدير)) ومثل هذا الإقدام يوقظ ـ في الصدور الضيّقة كعيون البخلاء،والأدمغة التي ران عليها التعصُّب فأظلمت حتى عدمت منفذاً للضياء ـ فكرة التناقض فيتساءل المتحذلقون كيف تأتّى لهذا الشاعر المسيحي أن يجمع بين الشتاء والصيف على سطح واحد؟ وهو الذي تقدَّم له أن تولّى القضاء سحابة خمس عشرة سنة، فكان المنطق عمادَه في بسط المقدمات واستنتاج النتائج، ثم آلّف في الفلسفة، والفلسفة ركيزتها عدم التناقض. أوثبة من الشيعة الى الوهابية؟ أم تراجع عمّا قال بالامس؟

ألا فليطمئن المرجفون الدائرون في فراغ أنفسهم، أو فلَكٌ ضيق كمقلة الحسود. وليعلموا أن الشاعر الجدير بهذا اللقب ـ ولا سيما الشاعر الملحمي ـ يتعالى عن مزالق الطائفية ويتحامى سمومها، فما

يستهويه إلا البطولة. شأنه شأن النسر ينشد القمم ويغفل السفوح، فإنّ من تغنّى في الأمس بالإمام علي، وشدا اليوم بمآثر ابن سعود، لا يتعذر عليه ان شاء الله، أن يشيد غداً بمجد المهاتما غاندي، فيتلاقى التشيُّع والوهابية والتصوّف الهندي على قلم واحد،ولا تناقض، فإن الوردة لا تنفي الآسة، والآسة لا تنفي الياسمينة. وما تغصّ الحديقة بمئات الرياحين والأشجار، فكيف يضيق صدر الكريم بنخبة من تلك الأدواح الباسقة التي ازدان بها التاريخ فكانت خضرة وظلاً وثمراً طيّباً.

أما الملحمة التي أدرتها على الإمام أبي الحسن، فارس الإسلام، وأمير الكلام، وشيخ الزهّاد فمعاذ الله أن أنقض منها حرفاً. وبحسب أبي تراب[١] شجاعة أن يكون قاتل عمرو بن ودّالعامريّ يوم الخندق، وفلسفة ان يكون هو القائل:

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وبحسبه عدلاً ان يعامل أخاه عقيلاً كواحد من عامة المسلمين، وبياناً عميقاً قوله: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وبلاغة قوله: تخففوا تلحقوا، ونظراً بعيداً قوله: احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع.

---

(١) أبو تراب من ألقاب الإمام علي.

قلت في تصديري ملحمة ((عيدالغدير)) ان الشرق العربي فقير الى الملاحم، وان العروبة المستيقظة الآن في صدر ابنائها من المغرب الأقصى الى منتهى جزيرة العرب. لأحوج ما تكون الى التمثل بابطالها الغابرين.

واصغ اليه كيف يتغنى بأهل البيت عليهم السلام كرموز انسانية رفيعة وذلك في نفس ملحمته (عيدالرياض):

أهل بيت النبيّ ما كان طه ... غير قطب المكارم الجوَّاد

خبزُهُ، يوم كان يحظى بخبزٍ ... للغراثى، وماؤه للصادي

لو ملكت الجبال تبراً. يقول ... المصطفى، وُزِّعتْ على القصّاد

قانعاً بالكساء من زينة الدنيا ... ومأوى وبلغة من زاد

((أنا عبد، كالعبد آكل مرتاحا ... وكالعبد مفرشي ووسادي

((يا إلهي مع المساكين فاحشرني ... دعائي لهم، وفيهم ودادي))

وتراه بفتح مكة، والأقطاب ... حفت به كيوم التنادي

يوم غنى له من الله نصر ... وبهاء الشعاع في الأرآد[٢٣]

يؤنس الخائف الضعيف اعتراه ... من جلال النبي شبه ارتعاد

قائلاً، والكلام أحلى من الزهر، ... وفي الحر من صبيب العهاد

لا تخفني فلست بابن مليك ... ورث الزهو عن حرير المهاد

إن أمي كريمة من قريش ... لم تمتع بنعمة الإرغاد

---

(٢٣) أرآد: مفردها رأد.

لم تعف مأكل القديد. ولم تعرف دمقساً للبس واتساد[١]

أحمدٌ كان ألين الناس خلقاً عصم الله حلمه من عناد

يستشير الأصحاب شهماً وديعاً وهو أغنى الورى عن استرشاد

حين يوحى اليه يقطع بالوحي وفي عيشه، نظير العباد

بل نظير الضعاف منهم صبوراً لسُغوب، وللخطوب الشداد

فكأن العراء والبرد والزعزاع والرعد حصّة الأطواد

* * *

---

(١) اتسد: أخذ الوسادة. ومما يؤثر عن النبي انه يوم فتح مكة جلس على الصفا يبايع الناس. وجاء رجل فأخذته الرعدة فقال له هون عليك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد. وكان يقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. واجلس كما يجلس العبد. وكان يأكل مع الخادم. ويحمل بضاعته من السوق. وقد عاش عيشاً خشناً فكان يأكل خبز الشعير غير منخول. وكان ألين الناس عريكة ما دعاه أحد من اصحابه إلا قال لبيك يخالطهم ويحادثهم ويمازح صبيانهم. ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة. وكان أجود من الريح المرسلة. وقال يوماً لاصحابه وقد اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه: اعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاء نعماً لقسمته بينكم. وفي رواية. لو ان لي مثل جبال تهامة ذهباً لقسمته بينكم (ملخص عن السيرة الحلبية).

(٢) السغوب: الجوع.

أهـل بيـت الـنبي كـان علـيّ جـدُّكم. كـان سـيّد الزهـاد[١]

قـال دنيـاكم علـيّ حـرام وهـي انثـى، فلـن تنـال قيـادي

وهـي في خـاطري كحفنـة اوراق، مشـى فوقهـا نهيم الجـراد

رجْـعُ أفراحهـا كعفطـة عنـز ويواقيتـها رهيـف القتـاد

انـه لـو اسـلُب الرعيـة فلسـاً لجفـاني، علـى النعـاس رقـادي

وعصـاني فمـي، وصَـدّت لهـاتي عـن طعـام محبـب وازدراد

ولشـاهت صـحيفتي، ومحـى اجـ ـري، وزالـت مـآثري وجهـادي

كـان ذاك العظـيم يعلـم ان الـ ـمال والكنـز أحقـر الأصـفاد

طهّـر الله صـدره مـن غـرورٍ وادعـاء، ونهمـة الصـيّاد

تختـه كـان بعـض قـشٍ وليـفٍ لم تدنسـه صـنعة النجّـاد

وهـو مـن تصـغر العـروش عليـه وهـو صـنو الخلـود في الآبـاد

وهـو إن يفتخـر بمـاض، فقـدُّ الشهب آيات فضله والأيادي

كعبـة الفهـم والبيـان المُعلـى والمـروءات والسـيوف الحـداد

ليـث ((بـدر)) و((خيبر)) و((حُنين)) ذكـره في فـم العصـور الشـوادي

إن يَلـمُّ الميـدان أكـوام فخـر فهـي غـلات سـيفه الحصّـاد

طيّـب الـنفس كـان يلقـى المنايـا لانتصـارٍ أو ميتـة استشـهاد

---

(١) كان ابو الحسن يقول: إن دنياكم لأهون علي من ورقة في فم جرادة تقضمها وانها كعفطة عنز. ولا غرو لزهد الامام ومآثره الخالدة مضرب الأمثال.

جـوده بالـدماء. كـالجود بالـ ـفلس، فـاكرم بالبـائس الرفّـاد
مـن يجـد مـن خصاصـة برغيـف وهـو أولى، مـن سـائل بـالزاد [١]
فهـو أسـخى الـورى فبـذل سـواء مـن أيـادٍ وبذُلـه مـن فـؤاد
كـان مـلء العلـى أبـو الحسـن الـ ـشهم، فمـا هـم مـرة باعتـداد
فَلِـمَ الشـمس كلّهـا لا تبـاهي؟ ويُبـاهي منـها بصـيص بـاد [٢]

بولس الجريح

في ((مـذكرات جـريح)) يمنحـك بـولس فرصـة ذهبيـة لاكتشـافه ويحاول ان يقف عارياً في ضوء الشمس:

((وكان الأخلاص دليلي في ما اكتب فتجردت من كل شيء الا من حقيقتي العارية)) [٣].

ويعود هذا المؤلف الرائع الى سنة ١٩٥٠ مودّعاً النصف الأول من القرن العشرين ومستقبلاً النصف الثاني منه، ليكون شاهداً على عصره راصداً قيمه الثقافية والاجتماعية واصفاً إياه بهذا المقطع من مقدمة الكتاب:

---

(١) من خصاصة: أي من قلة.

(٢) ملحمة عيد الرياض: ٤٣٠ ـ ٤٣٣.

(٣) مذكرات جريح: ٣.

((في هذا الزمن المحموم، وقد أصبح معظم أهله آلات تفرّ من التفكر، حتى تهرأت وصدأت في حمأة طلقها الشعاع الطهور والنسيم العلوي فاستترت بالعلّيق الأخضر، وغدت مسرحاً للافاعي وملعباً للصلال. وقد لبست كل حيّة اسماً طريفاً، فدعي النفاق مرونة والغدر مهارة، والفجور حبّاً والمقامرة حظاً، والكبرياء شمماً والغطرسة نبلاً، والبذاءة ظرفاً، والظلم حزماً والسرقة تجارة الى آخر هذا المعجم الذي يخيف الضواري لو صُوّر رموزاً.

ولا ينسى ان يدعو القارئ وهو يشدّ على يده الى التسامي على هذا العالم وبلوغ الذروة ومن هناك سوف يلقي نظرة اشفاق على ((السوائم المقتتلة على المرعى والايلاد، وعلى الماشية الغريقة في مزابلها، على البهائم الدائبة على النطاح حتى تتردى في هاوية.. حينئذ تستشعر نعمة الله عليك اذ اعطاك الحكمة فجعلك بها انساناً جديراً بالملأ الأعلى)).

ومذكرات بولس تلك تختلف عن غيرها في تساميها عن الذاتية بل أراد لتجربته الانسانية ومعاناته وعذاباته ((عبرة لمعتبر وعزاء لأسيان وتطلع الى مشاكل الحياة ومعاني الحياة)).

يعتبر بولس الألم مشكلة من أمهات المشاكل الكونية بل هي مشكلة الانسان الكبرى قال ديكارت: أنا أفكر إذن أنا موجود ولو قال أنا أتألم فاذن أنا موجود أو أنا موجود فإذن أنا أتألم، لكن قوله انفى

للشك وأعلق باليقين)).

ويبدو أن بولس قد ألقى نظرة عميقة على عصره فألفى ابناءه غارقين في حمأة المادّية حتى نسوا الله فأراد: (توجيه القراء الى انه تعالى هو الركن الأوحد لهذا الكون. فاذا استطعت أنا الخاطئ أن اهيب بنعجة واحدة من النعاج الضالة فأردّها الى حضن راعيها فلقد كفّرت عن سيئآتي ولقيت ثواب أملي)).

يرى بولس ان حسبان الموت شرّ خطأ جسيماً ((لأنه النتيجة الطبيعية الملازمة لكل مركب، فضلاً عن كونه طريق)).

وأن الالم هو الطريق الضيق الموصل الى الله: ((وأحسب أن أفضل الحلول لعقدة الألم هي أولاً فكرة الصبر والاذعان ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ثانياً: فكرة التضحية التي جعلتها المسيحية أُسّاً للفداء وتلك التضحية التي أساسها الحب فيها من الغبطة ما يغطي الألم[2].

ويرى بولس الحياة غاصّة بالألم ((ولم تستطع المدنية تخفيف آلام البشر بل ضاعفتها بما فتحت من ابواب الترف فلم يبق الاّ

---

(١) البقرة: الآية ١٥٥

(٢) مذكرات جريح: ٢٢.

التضحية)).

ثم يقدم توضيحاً لفكرة الصبر قائلاً: ((ولكن الصبر لا يعني كبت البوذيين وتحجّر الرواقيين المتكبرين، لأنهم متى تجردوا من الشعور بالألم تجردوا من الشعور بالحياة، فاصبحوا اصناماً)) ويستطرد بولس في فلسفة الحياة والألم:

((بالحب انتصر المسيح على الألم والموت، وبالحب وحده استطاع الشهداء اجتراح العجائب، أولئك الابطال استقبلوا العذاب المبرّح باسمين، لا على طريقة الرواقيين والبوذيين بل على طريقة المعلّم يتقطر فرحة من خلال العبرات)).

الانسان ذلك المجهول

ويقف بولس مذهولاً أمام هذا الكائن المدهش: الانسان وافتتح الحديث معه ببيت شعر قاله الامام علي عليه السلام:

((وتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الاكبر.

قائل هذا البيت ـ علىالارجح ـ هو الامام الاكبر، مفخرة الشرق العربي علي بن أبي طالب عليه السلام)).

أجل الانسان في رأي بولس عالم كبير... كبير جداً تضيع فيه المجرّات ولندع بولس يعبر عن ذلك وجها لوجه:

أجل ان الانسان ذلك الكائن الذي يسعى على قدمين، وينظر

بعينين، وقامته دون المترين، ينطوي على العالم الاكبر. بل ما قيمة العالم الأكبر بدونه. ومن يستشعر بهاء الشمس، وصفاء الرقيع الأزرق، وبهجة الربيع الأخضر، وعندلة البلابل المسبّحة بحمد باريها اذا خلا الكون من انسان.

الانسان! ذلك اللغز العميق حاول فك الالغاز جميعاً إلا أحجيّة نفسه. وظل مئات السنين يطوف حول حصون المعرفة فلم يجد المفتاح إلا يوم هبط عليه الوحي بهذه الآية: ايها الانسان اعرف نفسك. ولو كان ابن الارض فقط لما كان لغزاً، ولكن له مصدراً آخر يتعذر ادراكه على الحواس، ويتيه فيه الظن فلا يدركه الا العقل مؤيداً بالقلب، لذلك ترى الانسان ملتقى الأضداد، فهو الضعيف الخوّار والشجاع الجبّار، والكريم الشفيق، والجلف الصفيق. وهو الحيوان المحمول بالغريزة على التناسل والغذاء، وهو العفيف السماوي التفكير. ومن هنا نشأ فيه الصراع الأبدي، وهو أعنف المعارك لانه نضال في صميم الوجود، بل هو ركن من أركان الوجود دائم بدوامه.

ومن هنا اختلفت النظريات في الانسان. فمن قصر النظر على حيويته رآه أتمّ الحيوانات خلقاً، وأوسعها حيلة وان قصّر عنها سرعة جري وقوة ذراع. ولكن من تطلع اليه ببصيرته رآه قطب الكون ونقطة الانطلاق لا شيئاً بين الاشياء، ولا جزءاً من كل بل عالماً

مستقلاً، ينطق بلسان ويحب بجنان، ورأى الكون كله من خلاله. كل ذلك لأنه مفكر يتقمص روحاً مستمدة من خالقه المبدع، من الله جل جلاله.

الانسان متفرد في الطبيعة لا يدانيه منها شيء ولا يشابهه شيء ولا يستبدل بشيء. فما هو بالمركّب ولا بالمضاف ولا بالفرد المماثل لسائر الأفراد، لأنه شذوذ عن الطبيعة وخروج على نواميسها. فقد يتعذر عليك التمييز بين حمامتين بيضاوين، أو بين فرسين أدهمين، ولكنك لن تجد بين ملايين البشر رجلين هما هما. فان تشابها في الجسد اختلفا في الروح. ذاك ان الانسان كون قائم بجوهره بالرغم من التشابه الناجم عن الوراثة والبيئة، والصفات الظاهرية الجامعة بين أبناء الاقليم الواحد. وبقدر نمو الشخصية في الانسان يتسع الفرق بينه وبين اقرانه، وبقدر تلاشيها يتلاشى الفارق وتمحي كمية الانسانية فيه ومن ثمة يتعذر تحقيقها، ويصبح فرداً في القطيع، ويندمج في الجماعة، فيكون له حياتان. أما الأولى فسطحية زائفة تساير المجتمع في ما يسمونه مدنية، وهي طلاء خارجي وسراب مخادع وأصداف شبيهة بتلك التي يقذفها البحر فتلتمع على الشاطئ في الأصيل وليست من اللآلئ بشيء. ومن هذه الجهة سمي الانسان فرداً في الهيئة الاجتماعية، أو عضواً لجسم على حين ان هذا الجسم عضو منه. وانما النظرة السطحية اليه أوهمت الناظر انه جزء من

كل، ولكنه في الحقيقة يحدد بداخله لأن حياته الداخلية هي اللباب ونقطة الانطلاق والخلق والاتجاه الى الآفاق العلى، وتلك هي حياته الثانية الروحية التي تحلّه من قيود العبودية وتصله بالله منبع كل خير وتحرر.

وقد يكون المجتمع صديق الفرد ولكنه عدو الانسان، ومدمّر الشخصية، اذ يلاشيها فتتبخّر كعين الماء الصافية، تستحيل بخاراً لتندمج في البحر الملح حيث لا تعود تنقع غُلة ولا تبلّ لسانا.

باسم المجتمع يحقّر الانسان ويعامل معاملة الآلة المتحركة فيتألم. وتارة يسمى هذا المجتمع شيوعية ونازية وفاشستيه وطوراً يدعى شعب الله الخاص. ألفاظ جوفاء وطنطنة وأوهام.

انما الانسان هو المتألم، وليس المجتمع الا أنا وأنت وهو.

فاذا حذفت هذه الضمائر الثلاثة فقد حذفت الكون بأسره لان الكون كله يتجلى بانسان يتوق ويغوص على أعماق نفسه يتعالى ويلتحق بالقبس الالهي، بالحق الذي يحلّه من أغلاله عملاً بقول الانجيل (تعرفون الحق والحق يحرّركم).

الانسان كل في كل. نفس وجسد يؤلفان وحدة صميمة لا انفصام بينهما. فاذا قام نضال فبين الروح والطبيعة، لا بين النفس والجسد فكلاهما اصيل متداخل في الآخر. وانما العمل على اضعاف الجسم وملاشاته إضعاف للنفس وجناية عليها. برهمية وبوذية ما أنزل الله

بها من سلطان.

وليس في غايات الجمال أجمل من وجه إنسان. ولا يتأتّى له ذلك من تناسب في التقاطيع، او سماحة في السيماء، أو من نبض الحياة في عينين، ولكنها الروح المشعّة، هذه الرفيقة الأمينة الغالية على الله تتجلى في وجه.

الانسان غاية في نفسه لا واسطة ولا جسر يعبر عليه المجتمع الى مآربه. وانما المجتمع يعبر على الفرد المركّب من لحم ودم، المولود من أب وأم، وليس الانسان فرداً فقط بل فرد وروح. وهو بهذه الصفة وبما رُكب فيه من توق الى الخير يندّ عن الجماعة والوطن فيكون مواطناً في ملكوت الله (كما يقول بردايف في كتابه حرية وعبودية الانسان) ومصدراً للقيم ونقطة ارتكاز ينطلق منها المجتمع والبشرية والكون، لا نقطة ماء تتلاشى في هذا الخضم المثلث. بل ان الله تعالى مبدع الانسان لايرتضيه ذليلاً وضيعاً، ومن الخطل زعم الزاعمين بأنه خلق الانسان لتمجيده، تعالى الله الغني الحميد عما يصفون. وانما خلقه منّة من لدنه وتكرماً وحباً ليرفعه اليه اذا أطاعه ولبّى النداء السماوي. كل هذا القول في الانسان لا يخوله أن يكون عنجهياً أنانياً فالأنانية والأثرة من شأن الجماعات والأحزاب والطوائف. ولكن الانسان الجدير بهذا اللقب ينفتح للمحبة والتضحية في سبيل الغير، فلست غريباً عني ولست غريباً عنك بل أخوان

متحدان اتحاداً صميماً لا صلة إنسان بفرد أو بموضوع بل صلة الذات بالذات. أما الفرد الاناني فعبد يجهل معنى التحرر، فكيف يكون عالماً مستقلاً وقبساً من النور الالهي. فهو بالتضحية والمحبة يخرج عن الانعزالية،ويعيش في المجتمع لا ليذوب فيه بل ليرقيه بما يخلع عليه من محبة ونور وعلم، فلا يكون علةً عليه ولا آله تحركها الاهواء، ولكنه يعطيه من ثقافته ولا يضمحل في مدنيته. وبين المدنية والثقافة فرق عظيم، فالمدنية آلات ومعامل وبوارج وطائرات، وأزياء ودعارة، ولهو واستمتاع بملذات وتسابق الى مال، والثقافة تعمير أدمغة وتحضير قلوب، وصقل أخلاق وتفتّح أنفس وخلود[١].

الموت.. القنطرة

وينظر بولس الى الموت نظرة عميقة تستكشف حقيقته وتسبره وتصوره تصويراً رائعاً لأن الاصل هو الحياة والانسان مخلوق للبقاء لا للفناء يقول الشاعر الراحل:

والخلود في طبيعة الانسان، وما الموت إلا انتقال وفراق الدنيا الى ما هو ابقى منها وأنبل، وانه شرط الخلود كما أن مغادرة اليابسة وعبور البحر شرط لبلوغ القارات الأخرى.

---

(١) مذكرات جريح: ٣٧ ـ ٤١.

وانما منشأ الخوف هو الدوار الذي يلم بالمرء عند وقوفه على الشاطئ وارتعاده لمشاهدة الأواذيّ، وتخوّفه من الغرق والوقوع في ظلمات اللجج بين انياب التنين. ولكن المرء يتحرّر من هذا الخوف اذا هو لبّى نداء الله وتهيأ للرحلة، وشد الواح السفينة. وان الباريء الذي خلق البحر واحصى حيتانه ييسّر له بعد ذلك نسيماً رفيقاً يدفع الشراع، ويبسط ما تعالى من الآكام الزرق السوائل، فيجعلها مهداً ليناً وبساطاً تتلألأ فيه الكواكب، حتى يكاد المركب يتعثر بالبهاء، وكأنه في ليلة زهراء يمحي فيها الزمان لأنها مقدمة للنعيم المقيم في ملكوت الله[١].

ومن أجل هذا يعتبر بولس الموت في عناصر الحياة نفسها[٢] وقدر الهي لا مفر منه وهو يعد بوابة الانسان الى ولوج الملكوت، ذلك الملكوت الذي يراه بولس لا نهائياً، ((فيقف على شاطئ اللانهاية وقفة الصبي القاصر على ساحل الخضم المجهول، يرقب السفينة ببصره ما دامت قريبة من الشاطئ، فاذا تطاول المدى وتضاءل الأفق، ندّ الشراع عن مقدور العين وتوارى المركب وأغمض الصبي عينيه وهو في شبه دوار وعاد من حيث جاء))[٣].

---

(١) ن. م: ٤٢.

(٢) ن. م: ٧٤.

(٣) ن. م: ١٠٣.

وكانت معجزة النبي أيوب عليه السلام هي الصبر ففي ظلمات المرض الرهيبة وفي لياليه الراعبة تتقطع بالمريض اسباب الأمل ومن خلال هذه الظلمات الرهيبة يشعّ في بصيرته نور الله فلا يرى مفزعاً الاّ اليه(١).

ومن خلال ظلمات اليأس يشع الامل الحقيقي ويضيء الايمان.

هذه الالفاظ، وأخواتها من مثل إنّا لله وإنّا اليه راجعون، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، يرددها اُلوف الناس كل يوم حتى لا يدركون معناها. وهي في الحقيقة معصومة من الابتذال بما تنطوي عليه من حكمة ازلية والحكمة تظل في جدّة دائمة وأول فضائل الاسلام الايمان، بل الدين الاسلامي كله في لفظه (اسلام) ومعناها التسليم لله الرحمن الرحيم والثقة به جلّ وتعالى(٢).

ومن خلال هذا العجز البشري الشجاع يكتشف الانسان المعرفة الحقيقية فلا يصيبه الغرور الفارغ وبولس هنا يقف الى جانب ((كانت)) وهو من أعلام الفكر الانساني عندما يقول: ((ان لا زورق لدينا ولا شراع لخوض هذا العباب)) (٣).

---

(١) ن. م: ١١٤.

(٢) ن. م.

(٣) ن. م: ٨٨.

ويقول بولس مستطرداً:

اجل لا حول ولا قوة الا بالله. وفي القرآن عظات في الصبر وآيات منها:

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ سورة البقرة: ٤٥.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٦ و١٥٧.

ويقول اغسطينوس لا راحة الا بالله شاعراً بضعف الانسان وقلقه، وانما القلق ركن الفلسفة الوجودية سواء في ذلك هيدجر وكير كجورد.وسارتر ومارسل.

أجل لا حول ولا قوة ولا راحة إلا بالله، ولا يغرّنك ما بك من قوة جسدية ايها الضارب الأرض بقدمه كأنك تنذرها بنمرود جديد: ولقد كنت في مطلع شبابي مثلك مزهوّاً بنفسي، وطوّح بي الغرور فقلت في قصيدة لي:

وكأن ربك قد برى عمد السما لّما براني

استغفرك اللهم وأتوب اليك توبة نصوحاً، فها هو العمود المسكين يصبح أوهى من سنبلة عجفاء في ريح صرصر.

تالله ما أضعف الانسان! هذا فردريك نيتشه القائل بالقوة

والانسان الاعلى (السوبرمن)،نيتشه الذي يغار من يسوع فيريد أن يستقوي يموت مريضاً بين (المجاذيب).

وهذا نابليون الأول الذي لعب بالقارة الأوروبية لعب الرياضي بكرة القدم يموت يائساً في جزيرة بائسة.

ولا تغرّنك فلسفة الملحدين فهؤلاء الملحدون أنفسهم كانوا في أعماق أعماقهم مؤمنين، ولكنها الشهوات أعمت قلوبهم وعقولهم وأهابت بهم الكبرياء فأزعجتهم عن السَمْت، فراحوا يبحثون عن فردوس أرضي فكان مثلهم مثل الظمآن يدير ظهره للنبع السخيّ ويضرب في البيداء فلا يرد إلاّ السراب. وهو كلما ابتعد عن النبع ازداد عطشاً فشارف على الموت ظماء. ولو حسن الاصغاء لسمع النهر يهدر في صدره فليس الله في السموات متربعاً على عرش كما يتربّع الملك الجبار ولكنه في قلب الانسان لو كان الانسان سميعاً[1].

وقد اكتشف بولس طريق العودة الى الله في غمرة ذلك البحر الهائج من المعاناة وأمواج الألم.

ولهذا انكفأ على نفسه مقتلعاً جذور الشرّ: ((ولقد اعتبرت بهذا الأمر من الجهة النفسية فقررت أن على التائب اقتلاع جذور الشهوات والشرور اولاً والاّ ظلّت الاسباب نفسها تفضي الى النتائج

---

(١) ن. م: ١١٤.

نفسها. وما أشبه أسباب الخطيئة بالعلّيق تقطعه فيعود أحدّ مما كان وارهف شوكاً. فالشهامة أن تقتلع اصوله وكذلك النفس لا تغمرها النعمة الاّ بعد ازالة الحواجز)) [١].

الزمن والذاكرة

يرى بولس ان الزمن ((يتطاول ويتقاصر تبعاً للحالات النفسية التي يمرّ فيها الانسان فمن الزمان ما تخاله مسمّراً ومنه ما يمر مرور السهم ومن الوقت ما يندّ عن الزمان فيكون في السرمدية المطلقة)) [٢].

ثم يورد حكاية الراهب [٣] ليقول مؤيداً زعم القائلين بأن الزمان غير قائم بنفسه وقد حدده الاقدمون بأنه مقدار الحركة.

ثم يعود ليكرر نفس رأيه قائلاً: ((ولكن بحسبك أن تعلم أن طوله وقصره بالنسبة الى الانسان، يتبع الحالات النفسية، فالساعة التي تصرفها في الخان بين كؤوس وألحان، وسهر وندمان هي غير الساعة التي تصرفها في الوجع والانين.

---

(١) ن. م: ٧١.

(٢) ن. م: ٦٩.

(٣) تجدها في حكايات بولس في آخر الكتاب.

ويخيل اليك ان الزمن بطيء مشلول وأنت في عنفوان الشباب ولكنك في الاربعين تحسبه يمرّ مر السحاب.

وفي الليل تختل مقاييس الزمن، وقد يخيل الى النائم انه استمر يحلم ساعات طوالاً على حين ان اطول الاحلام لا يتجاوز بضع دقائق. ويعترض معترض بان ذلك عمل المخيلة المتفلتة من رقابة العقل.

ولكن موازين العقل نفسها تتبدل في الليل. قلنا ان بعض المفكرين قاسوا الزمان بالحركة الكونية، ولكن المريض المتقلب على أحرّ من الجمر، وأحدّ من الشوك، يشعر بانعدام الحركة(١) فلا يكون ليله في

---

(١) كنت في الثالثة والعشرين من العمر عندما عبرت الحدود العراقية الايرانية شرقاً في رحلة شاقة وطويلة وكان قد مضى على اشتعال الحرب ثمانية شهور؛ وفي ليلة غاب عنها القمر وفي غمرة الظلمات المتراكمة وقد اجتزنا مسافات طويلة في الأراضي الايرانية المحتلة تركني الدليلان في منتصف الليل والطريق وعادا ادراجهما بعد أن عيّنا لي نجماً في السماء اهتدي به واطوي بقية الطريق حتى التلال التي قالا انني سأبلغها بعد ساعة.. وعندما بلغت التلال كان قد بقي على طلوع الفجر ساعتان خلتهما قرنين من الزمن فقد تسمّرت النجوم في السماء وتوقفت حركة الزمن.. فالكلاب التي اعتادت افتراس جثث الجنود القتلى اضحت اكثر فتكاً من الذئاب وكان ذهني المرهق يصنع خيالات مهولة لنهايات دامية.. الاجهاد يدفعني الى النوم دفعاً والرعب يوقظني مذعوراً.. أجل استحالت تلك الساعتان الى قرنين واصبحت أحلم بالفجر كما يحلم المرء بالمستحيل!

الزمن بل في الابدية))[١].

وقد عاش بولس الأديب لحظات صفاء حررته من قيود المنطق وحب الحياة متفيأ دوحة الفن، متناسياً محنته وكانت تلك الساعات المعدودة ((أشبه شيء بالماء الكوثر ينزله الصادي وقد احترقت لهاته استعاراً وكاد يموت أواراً. وفي ظني أنها لحظات لا تدخل في حساب الزمن بل في حساب الأبدية، لأن الزمان والمدى يتعطلان في هذه الحالة كما يتعطل الحس عند الصوفيين إذ يتجمع المرء كله في هذه اللحظة نفساً وجسماً وماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فينعم بهذه اللمحات كما ينعم السجين المكبل اليدين بمنظر الروض الباسم، ولو عابراً من سجن الى سجن))[٢].

ومن المفيد أن ننقل بعض ما سجله بولس حول الزمن والذاكرة لنعرف عن كثب بعض آراءه أو متبنياته في هذا الموضوع:

أول من أثار مشكلة الاستمرار (Duree) في الزمن من الفلاسفة المعاصرين هو الفيلسوف هنري برغسون، فكانت هذه النقطة ركناً أساسياً في البرغسونية. وأحسب أن أول من أثار القضية في فجر التأريخ هو الفيلسوف اليوناني هراكليت. وقد تنبّه لهذه النقطة

---

(١) ن. م: ١١٠.

(٢) ن. م: ١٥٢.

القديس أوغسطينوس ثم مرّ بها بعض المفكرين مراً سريعاً. أما برغسون فقد حمل لواءها. وكان لهذا اللواء ظل مديد، فالزمن ـ وحياة الانسان لا تكون إلا في الزمن ـ أشبه الأشياء بنهر جارٍ موصول، لا توقف فيها ولا انقطاع لأن الحركة أساس الكون فهي مستمرة أبداً، واللحظات متداخلة لا مضافة ولا متفرقة. وانما العقل هو الذي يقسم ويجمّد، ولا تمرّ لحظة مشابهة لأختها كما أنه لا تمرّ في النهر النقطة الواحدة مرتين. ويترتب على ذلك أن الأنسان موصول الماضي بالحاضر، والمستقبل وما هذه الأزمنة الثلاثة إلا تقسيم العقل. وإن حياتنا كلّها يسجّلها الوعي وتستوعبها الذاكرة، لا تفلت منها شيئاً، ولكنها تتمسك بما تحسبه مفيداً نافعاً وتودع الباقي في القبو المظلم، حيث ينام ولا يتلاشى بل يستيقظ إمّا تلبية لنداء أو استجابة لظرف خاص. ومثّل برغسون لذلك بأن بعض الغرقى الذين سقطوا الى أعماق اليمّ ثم انتشلوا فعادوا الى الحياة رأوا في هذه اللحظة الرهيبة، أي اثناء هبوطهم الى الغور قسماً كبيراً من ماضيهم او ماضيهم كله. بما يشتمل عليه من حوادث طُويت، وتوافه خفيت عن صاحبها سنين عديدة فبدت واضحة في تلك اللحظة كما تطفوا الزوارق الغريقة على صفحة اليمّ إذا يسّر الله لها الآلة التي تنتشلها من اعماق اللجج. وممنّ خالف برغسون في نظريته هذه الدكتور عبدالرحمن بدوي فأورد في كتابه النفيس «الزمان الوجودي»

(صفحة ٢١٥ و٢١٦) ما يلي:

يقول «جانيه» رداً على برغسون «إن برغسون يزعم عادة بأن الرجل المنعزل ذو ذاكرة وانا لست من هذا الرأي فالرجل المتوحد ليست له كلية يختزن فيها كل ما مرّ به من أحداث وما عاناه من احساس وإنما الذاكرة ملكة متأخرة تنشأ مع الحياة الاجتماعية من اجل تكييف العمل، والأحداث لا تسجّل فيها على نحو خط مستمر وتيّار متصل بل على اساس إطارات عقلية أو اجتماعية تعطيها مدلولاً واتجاهاً خاصاً».

ذلك نقد جانيه، وهو نقد يتجه إلى إثبات أن الذاكرة لا تعطينا هذه الصورة لتيار متصل بالشعور، يجري في الزمان من الماضي الى الحاضر، بل على العكس من ذلك تمثل لنا في الزمان انقطاعات وانفصالاً، والواقع ان تصوير برغسون للذاكرة لا يتفق في شيء مع ما تدل عليه كل الظواهر المعلقة بالذاكرة سواء في أحوالها العادية أو في احوالها المرضية. ولا دليل مطلقاً على وجود ذكرى خالصة أي تذكر عارٍ عن احداث معينة محدودة.وبالتالي لا دليل على وجود تيّار للشعور بالماضي يسير في خط واحد متصل وكأنه تذكر فوق كل التذكرات الجزئية المحدّدة، بل كل ما لدينا ذكريات خاصة بأحداث معينة متفرقة ذات أتجاهات عدّة. وإن جمعت بينها مع ذلك أحوال واحدة فأن هذا الجمع لا اصل له إلاّ ردّها الى مصدر واحد تنتسب

إليه هو شخص أو ذات معينة. ولا يدلّ هذا الجمع إطلاقاً على أن ثمة تياراً متصلاً على النحو الذي تصوّر عليه برغسون الذاكرة الخالصة. ولعلنا هنا بأزاء تجريد أجوف تخيله برغسون: وفي وسعنا ان نفسر السر في قول برغسون به بلا عناء. فحقيقة الأمر أن برغسون قد جعل الذاكرة هي الروح وتصوّر الروح على انها المدّة او الزمان المتصل المستمر، ثم صوّر الذاكرة على اساس هذا التصوير للزمان، فكأن تصويره للذاكرة إذن ليس الأصل في تصويره الزمان بل بالعكس، ولذا نرى نظريته في الذاكرة لا تقوم مباشرة على الوقائع النفسية بل يحاول فيها إخضاع هذه لنظريته في المدّة. فواقعة اللاشعور لا تدلنا مطلقاً على ان كل الاحداث الماضية تسجل في الذاكرة، ولسبب او لآخر استبعدناها حاضراً عن الشعور. وليس كل ما في الذاكرة محدداً بزمان معين في الماضي، فأغلب ما فيها من معارف لا ندري متى واين حصلناه خصوصاً اللغة، وهذا يدل على ان مسألة التحديد الزماني في الذكريات مسألة ثانوية، واذا كانت كذلك فالماضي الذي تصوّره الذاكرة ليس محدداً وكأنه خطّ من الزمان مستمرّ معينة أجزاؤه بعضها بالنسبة الى بعض)).

وما كنت لأقف موقف الحكَم من هذه الآراء اولاً لقصر باعي في الفلسفة، وثانياً لأن ذلك خروج عن الموضوع ولكنني اقتصر على سرد واقعتين:

أما الأولى فمؤداها اني كنت مستنطق لبنان الشمالي سنة ١٩٣٥، فغرق احد المراكب الصغيرة التي تنقل التراب (السيمنتو) من معمل شكّا. وكان في الغرقى نفر من العمال مات بعضهم ورجع بعضهم عن اعتاب الابدية، وكانت القضية لديّ قيد التحقيق. وقد استجوبت هؤلاء العائدين الى الحياة بعد توديعها موقتاً. وتجاوزت الناحية القانونية في الاستجواب الى النقطة البسيكولوجية. فسألتهم عن شعورهم الصميم عند هبوطهم الى الهاوية، فأجابني بعضهم بأنه لمح - قُبيْل الغيبوبة - قسماً كبيراً من ماضيه يكرّ بسرعة هائلة في تلك الهينهة الرهيبة. ومن البديهي ان هؤلاء الأميّين لم يقولوا ذلك مسايرة لبرغسون أو تأثراً برأيه.

واما الثانية فهي من نتائج المخدر ال (Ether) وقد حان لنا أن نعود بك اليه، ابعده الله عنك وعمن تحب.

معلوم ان كمية المخدر التي تعطى لتنويم المرضى متفاوتة المقدار تبعاً لحالة المريض، وتتراوح الآلة المسجلة بين الصفر والثمانية. وأكثر المرضى ينامون عند بلوغ المنوّم الدرجة الرابعة في الاعطاء، ويشذّ بعضهم عن هذه القاعدة وعلى الاخص المدمنون على المسكرات.

ولما ارتفعت الكلفة بيني وبين (البنج) بعد العملية الثالثة قررت أن اراقب مفاعيله فأكون الخابر والمختبر والقاضي والمحكوم عليه في آن واحد.

ولاحظت أنه عندما يبدأ الجسم بالتخدر يحس المريض بالاسترخاء فيشعر ان جسمه كان متقلصاً منكمشا ثم تهدّل في لحظة والتصق ظهره بالمشرحة، متوهماً انه كان بينه وبينها فاصل بعيد. ويبدأ الطنين في الأذنين فتسمعان الأصوات مفخمة. ولقد كنت اسمع في هذه اللحظة تساقط الماء من الماسورة (الحنفية) ـ بينما كان الطبيب يغسل يديه ـ كتسقاط الشلال هادراً في الهاوية. أما حدقة العين فتتراءى لها الامواج الصفراء والخضراء وتكون الغلبة في النهاية للأمواج السوداء وهي بدء الغيبوبة. ولقد مرّنت ارادتي على المقاومة ـ برغم التنفس السريع الذي يستعجل النوم ـ حتى كنت أبلغ السادسة واعياً فاستجمع قوة اللسان الذي يأخذه الشلل في الخامسة، لأقول للمنوم اني بلغت الحدّ الأقصى من الملاحظة، ثم تكتنفني غمامة سوداء فأنام في لحظة خاطفة بعد بلوغي الدرجة السادسة، ولكنني كنت في هذه اللحظة التي لا تجاوز بضع ثوان اشهد صفحة واسعة من ماضيّ، فيها الحادث الخطير والتافه اليسير المنسي الذي يأبى أن يذكره انسان يفكر بالله وبالاستغفار، وهو لا يدري أيفتح عينيه بعد أم هي الغفوة الأخيرة. ولقد شهدت هذا الفلم السينمائي الخاطف منذ العملية الأولى وقبل اطّلاعي نظرية برغسون وسواه في الاستمرار والذاكرة.

ومما يدلك على سهر الذاكرة وحرصها على الالتقاط اني كنت

أسمع أثناء العملية ـ عندما يخفف المنوم درجة البنج الى الثانية والثالثة ـ حركة شبيهة بصوت المنشار في هبوطه وصعوده، وما هي إلا صدى الشخير[١].

وفي آخريات العمر يلجأ بعض البشر الى الاجزاء التي سجلتها الذاكرة بقوّة ووضوح ويدعوها الماضي و((يكون المرء باحثاً عن نفسه)) ولذلك ترى الاثرياء والعظماء يستشعرون لذة فائقة اذ يعودون الى وطنهم ولو ساعة[٢].

ولارتباط هذا الموضوع بموضوع الأحلام كظاهرة تثير التساؤل عن منشأها يبدو أن بولس قد بحثها في كتاب له بعنوان حديث العشية، وتحدث فيه أيضاً عن مناجاة الارواح والتنويم المغناطيسي الى ظاهرة ((التلبياثي)) أو التخاطب عن بعد، وليس لبولس قناعة راسخة بأي منها الا أن يقول بكل ثقة: ((ان العلم لم يترسخ في هذا الصعيد بعد)).

وبولس يرد آراء فرويد على الأقل في تحليله للأحلام، وقد مرّ بتجربة جعلته واثقاً بأن منشأ الأحلام مصادر أخرى أكثر سمواً ورفعة وحقانية واليك ما سجله في هذا الشأن:

---

(١) ن. م: ١١٥ ـ ١٢٠.

(٢) ن. م: ٩٧.

حلم عجيب

ليس هنا مجال البحث في منشأ الأحلام من الجهة السيكولوجية ولقد اجملت هذا الموضوع في كتابي (حديث العشية) مشيراً الى تشعب الآراء حوله وحول الظاهرات النفسية من مناجاة الأرواح الى التنويم المغناطيسي، الى التحاكي على البعد (Telepathie) ولكن أمراً واحداً استطيع الجزم فيه وهو أن العلم في هذا الصعيد لم يترسّخ بعد فبينا ترى (فرويد Freud) يرد الأحلام الى الغريزة الجنسية المكبوتة ترى سواه من العلماء والفلاسفة يردونها الى مصادر أخرى عديدة. وترى الحس المشترك المؤيد بالواقع يثبت تحقيق أحلام بعد حدوثها بأيام أو بسنين عديدة وها أنا أقص عليك حلماً عجيباً.

قلت ان الدكتور بدر حاول معالجة الداء بالطرق السلمية قبل أن يعمد الى المبضع. وجرى على هذا النحو مدة ثمانية أيام. وفي ليلة ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٤٢ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ظهرت لي في الحلم المرحومة والدتي، وكانت قد لقيت وجه ربها في ٢٢ أيلول من السنة نفسها. وربما كانت نكباتي الموصولة سبباً في تقريب أجلها. ولقد كانت حياتها استشهاداً مستمراً اذ رافقتها آلام عصبية نكدت عليها عيشها مدة ثلاثين سنة.

ولست لأصف فضائلها أولاً لانها امي والمرء مُتَهمٌ بحب أبويه،

وثانياً لأن كل اطراء يبقى دون ما تستحق فأكون قد حقرتها من حيث أردت اكرامها.

رأيت والدتي في زي ممرضة واقفة بجانب سريري وفي وجهها ألم ظاهر واضطراب فقلت ما بك يا أماه؟ فقالت: أني احس ألماً شديداً وأشارت الى عظم الحرقفة وأضافت ما هذا معناه: أنا بحاجة الى جرّاح، الى عملية وتأوهت وغاب عني ذلك الطيف الحبيب. وجئت الطبيب مبكراً فقلت غداً ادخل المستشفى فعجب لهذا التبدل ولهذه اللهجة الجازمة التي لم يتعود مثلها من مريض، فأعلمته بالحلم فقال أنت وما تشاء ولكن دع العملية الى ما بعد عيد الميلاد، فقلت بل أريده عيداً مخضباً بدمي فلعل طفل المذود يتقبل دم الخاطئ فيضيفه الى قرابين المجوس.

ودخلت غرفة العملية في ٢٦ كانون الأول، وبدلاً من أن آلف رائحة (الايتر Ether) المخدر بعد طول المطاف وتمرسي بالآفات، أصبحت لا أطيق تلك الرائحة وحسبي أن أسمع حديث عن الأيتر لأتقيأ.

وتدلك هذه الظاهرة على مبلغ تأثير الوهم من جهة. وعلى الانفعال المتبادل بين الجسد والروح فانهما في ارتباط وثيق ومتوازن فاذا طغا أحدهما فانما يطغو على حساب رفيقه، اذ لو كان الانسان روحاً صرفاً لكان ملاكاً ولو كان جسداً صرفاً لكان حيواناً.

واستفقت من المخدر بعدأن استغرقت العملية ساعتين، وقد وجد

الطبيب عظم الحرقفة متفككاً معجوناً بالصديد أي ان (المقحطة Curette) جرفت الوحل العظميّ. واستخرج الازميل والمطرقة ما كان قد تهرّأ من العظم وظل معتلقاً باذيال أمه الحرقفة. وغاص المبضع في الجهة الوحشية من الفخذ لتوسيع الأخدود الذي فتحه الصديد منذ سنة ١٩٤٠ ولاقتطاع اللحم المتهرّئ. وتأكد الطبيب أن التعجيل في العملية كان من قبيل الالهام لأن الدمار أصبح على بضع مليمترات من الوصلة (Articulation) وتأكدت أن روح والدتي لم يأتني عبثاً فحنان الامومة يتمرد على الموت لانه أقوى من الموت.

الصداقة

وقد بلورت المحنة الطويلة كثيراً من المفاهيم في وجدان بولس وحاز بعضها أهمية فائقة واكتسبت بسبب ظروفه الصحية المأساوية حساسية كثيرة فقد كتب عن الصداقة ما يجعلك تشعر بالمرارة التي عاناها في حياته وهو في كل ذلك يشكر الشدائد التي جعلته يتعرّف أعداءه من أصدقائه يقول عن الصداقة:

والصداقة أوثق العرى الاجتماعية التي تشدّ الانسان الى أخيه الانسان فتدمج روحاً بروح، وتمهر الاثنين بالقبس الالهي الاعلى مصدر كل روح وبارئ كل نسمة.

الصداقة هي التيّار المتبادل بين قلبين. يوحّد بين الخلجات

والمشاعر فتنصهر في بوتقة واحدة، وتتألق في عمود من ضياء فيتبدد الظلام وتسقط الكلفة ويرتفع الستر.

الصداقة إعجاب متبادل، وائتلاف مشارب، واطمئنان الاخ الى أخيه يؤازره ويؤاسيه. يفضي اليه بسرّه ويشكو اليه ضيمه، ويستشيره في الصعاب ويحفظه في الغيبة، ويدفع عن عرضه، ويفتديه بماله فيستقوي أحدهما بالآخر، فكأن كلا منهما يفكر برأسين، ويشعر بقلبين، ويتكلم بلسانين ويبصر بأربعة أعين.

ورابطة الصداقة أمتن من رابطة الدم، لانك في الاولى حر تختار،وفي الثانية مكره تلعب بك المصادفة والاقدار، وتسيرّك أهواء اجدادك وجداتك فتضيع ارادتك بين اصول وفروع فأنت برغم انفك تابع غير متبوع.

والصداقة الحقة تستطيب التضحية وربما كان المعطي اكثر اغتباطاً بالعطاء من الآخذ بالنوال. تلك هي الانسانية عندما تتخطّى حدود العدل لتطل من شرفة المحبة وتنظر مرة الى الارض حيث تزرع، ومرة الى السماء لا لتحصد بل لتقول اللهم: حسبي اني اعمل في طاعتك، فثوابي في عملي نفسه، لانك انت محبة.

آلام بولس

الآلام التي مرّ بها بولس سلامة في عمقها ومساحتها الزمنية أمر

لا يمكن تصويره، سنوات طويلة وسنوات؛ كان بولس يتأوه ويتلوّى تحت سياط الألم ومن حقه أن يقول انه ((أيوب القرن العشرين)) [١].

أما أطبائه فقد صور أحدهم آلام بولس بآلام امرأة تتعسّر ولادتها [٢].

ولمدّة اسبوعين على التوالي يعاني بولس هذه الآلام بعد كل عملية جراحية وعملياته تجاوزت العشرين بأربع.

وتكون معاناة المرض اكثر ايلاماً عندما يكون المرء قبله في عافية وصحة وشباب يتفجر حيوية ولم يخطر في باله وهو يسيح في الوديان متسلقاً الصخور أن يهوي ويسقط ويصبح طريح الفراش يقول بولس:

((أجل ما كنت احسب يومئذ ان هذه القوة التي تحملني على الحركة، تلبية لنداء الحياة المضطرمة في جسدي ستفارقني فأحمل على الأكف كما تحمل الجنازة؛ على فارق بيننا فتلك جثة لا تشعر لان صاحبها مات مرّة وأنا أموت في كل يوم مئة مرّة)) [٣].

وكان بولس يعيش هاجس الليل حيث تتضاعف آلامه او يصبح وقعها أشدّ في نفسه ويحاول فلسفة ذلك قائلاً:

---

(١) ن. م: ٧٢.

(٢) ن. م: ٨٢.

(٣) ن. م: ٩٦.

((العتمة تعزل المريض عن العالم الخارجي فينطوي على نفسه، وتتوثق العلاقة بينه وبين احاسيسه حتى ليسمع دقات قلبه، ويقترب وريده من أذنه وتزدوج شخصيته فيكون الشاهد والمحكوم عليه في آن واحد..

لذلك تراه يفرّ من الوحدة والظلام لانه يعلم سلفاً أن الألم ليحول بينه وبين الرقاد))[١].

ويقول بولس بكل ثقة ان آلام الروح والنفس هي التي تشحذ العزائم وترهف الحس وتقوّي الروح على الجسد ولهذا فهو يتحدّى أكبر شاعر في أن ينظم قصيدة بينما يكون طبيب الاسنان آخذاً في اقتلاع ضرسه[٢].

وقد قال بولس أنه على وشك أن يبدأ انتاجه الادبي عندما فاجأه المرض، وتهاوت براعم دوحته في مهب العاصفة؛ عاصفة الآلام وكما عانى بولس من آلام الجسد الذي أخذ يخبو شيئاً فشيئاً كشمعة في ليالي الزمهرير فانه عانى من آلام الروح والنفس؛ فقد كشفت له تجربته المريرة أشياء كثيرة ما كان يتوقعها؛ فوجد في القلم متنفساً له وتأكد أن لا خلاص إلاّ بالقلم، وأن مرارة الحياة تنمو في الانسان

---

(١) ن. م: ١١١.

(٢) ن. م: ١٢٥.

بقدر نموّ شعوره[١].

وكان قصيدته ((ألم)) مفتاحاً لعهد جديد وعالم باطني ((تعرّفت فيه الى ذاتي بعد أن استغلقت عليّ أعواماً طوالاً حتى حسبتني شيئاً بين الاشياء؛ فآمنت بالموضوعية، وانفصلت الذات العارفة عن المعروفة وعن موضوع المعرفة ولم يتنكر القلم لصديقه القديم))[٢].

على أنني أكاد اشعر بجرح آخر كان مصدر ألم لبولس لم يعبّر عنه بصراحة وآثر كتمانه وفي كتمان بعض الآلام فضيلة ونبل؛ فبولس كان يتألم لابتعاد الانسان عن فطرته التي هي مستودع السر الالهي فهناك حالة من التململ من الانسان عندما يستحيل الى فرد أو ما عبّر عنه الروائي الروماني بـ((المواطن))[٣].

وقد اغتالت المدنية المعاصرة مساحات شاسعة من الانسان واطاحت بمجده الاخلاقي.

ومن أجل هذا يقول بولس بملء فمه: ((وبين المدنية والثقافة فرق عظيم، فالمدنية آلات ومعامل وبوارج وطائرات وأزياء ودعارة ولهو واستمتاع بملذات وتسابق الى مال، والثقافة تعمير أدمغة وتحضير

---

(١) ن. م: ١٥١.

(٢) ن. م: ١٥٢.

(٣) كونستانتين جوريجو. الساعة الخامسة والعشرون. رواية.

قلوب، وصقل أخلاق وتفتح أنفس وخلود)).

غير أن بولس يضع حدوداً معقولة للصقل الانساني فيقول: جميل هو الصقل والعناية وتحكيم العقل ولكن في الغلوّ تضييقاً على القلب: وقتلاً للغرائز وتزويراً على الطبع.. إنّ زهور الحقل التي تنبت بجانب الشوك. بل تنبثق من الشوك نفسه لأزكى عبيراً من تلك التي تعمل فيها يد الانسان تقليماً وصقلاً وتشذيباً وتقصيراً حتى لا تبقى منها الاّ الصورة بعد تبخّر المادّة..

وحتى لا يُقرأ خطأ يستدرك بولس قائلاً:

((ولا تحمل كلامي هذا على محمل القدح في الحضارة، أو التفلت من الثقافة، فمن يؤثر الغصون الخضر الزاخرة بالمائية، والوردة الطافحة بالأرج ـ ولو شائكة ـ على الغصون والبراعم الاصطناعية لا يكون مبشّراً بدولة الحطب...))(١).

على أن آلام بولس فوق ما نتصوره ولن يستطيع أحد مهما بلغ من خصب الخيال أن يتصور ذلك المسلسل المرير من الألم.. لقد وصلت به المحنة أن تمنى الموت وقد قال المتنبي من قبل:

---

(١) مذكرات جريح: ١٥٤.

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا — وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

أما بولس فيقول:

يا موت يا حلم الخيال النائي — يا صبح آمالي وحلو رجائي

شوقي اليك أشدّ من غصص الهوى — وأشدّ من ولع الهجير بماء

شوق الصبيّة نوّرت أكمامها — فتطيّبت لصبابة ولقاء

شوق الغريق الى الضياء وقد هوى — متردّياً في اللُّجّة السوداء

ومن أجل ذلك عدّ بولس محنته اكبر بكثير من محنة أيوب فكتب يقول:

أيوب يا ملتقى الأمثال في الصبر الجميل، ومحطّ الخيال في تجسيد الألم، أنت أول ما يجري به القلم البديع حين ينغمس كرّة في مرارة العيش، وكرّة أخرى في دم الشهداء؛ فيتقطر على القرطاس خضيباً، وتغصّ الصفحات الطوال بالدمع حتى لتحسبها عيون الثكالى في المآتم. بل أنت أول ما تعبر اليه الذاكرة خلل التأريخ فتلوي القرون الأربعين لتقرّ تحت عرش البؤس الذي تبوأته، بيدك صولجانه، واليك انتهى سلطانه. فاذا اشتد الخطب على البائس وعبّست في وجهه الدنيا فغدت أضيق من عين البخيل هرع اليك، وتفيأ علمك، وتوسّل الى الله بك فصاح «يا صبر أيوب صبرّني».

مهلا يا ايوب إن هي إلاّ جولة قلم فينهار العرش وينطوي العلم وينتهي الأمر.

أمـا انـت فقبـل أن يغشـاك ليـل العـذاب شـرّفك الله في جلسـة سماوية بجميل الذكر، وجعلك مدار الحديث، وخذل الشيطان؛ فرفـع وجهـك، وانـبرى للـدفاع عنـك، فمـاذا كنـت تخشـى بعـد ذلـك وهـو سبحانه الوليّ الحـاكم ولـه الأمـر مـن قبـل ومـن بعـد: فـاذا هزتـك شماله هـزّة تصدّعت لهـا أعصـابك، عطفـت عليـك يمينـه بـالرفق، وأخذتك بالحنان. وكنت قبل يوم الروع قد متّعت النفس بمُتَع لـو مـت بعدها لما فاتك شيء من الطيبات. ألم يقل الشيطان عندما جـادل الله فيك، إن الرحمن سيّج حولك وحول بيتك، وحول كل شيء لك من كل جهة،وقد بارك أعمال يديك فانتشرت أموالك في الأرض.

وبعـد، فـاذا كنـت عفيـف اليـد لا تشـتهي مقتنـى غـيرك، ولا يمتـد طرفك الى أمته وثوره وحماره، فإنما كنت رَخيّ العيش قريره. ولقد أوردت في الذكريات الايوبية ما نصه ((من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايام التي كان الله فيها حافظي... وهـو مجالسـي في خبـائي.. وصبيتي يحيطون بي، أغسل قدمي باللبن، والصخر يفيض لي انهـاراً من الزيت.. عروقي منبسطة علىالمياه والندى يبيت على اغصـاني)). وكنت تملك سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف من الابل، وخمس مئة فدّان بقر، وخمس مئة اتـان، وعبيـداً لا يحصيهم عدّ. وكنـت أعظم ابنـاء المشـرق، ترفل في نعيم مقيم، بـين سـبعة بـنين وثـلاث بنات. فاذا ضمتك موجة هناء تنازعتك اخرى. وهكذا كانت تتسابق

اليك ألوان السعادة فتضلّ فيها عينك لا تدري أيها تختار.

اما أنا فعلى هامش الحياة جئت، فاذا فكّر بي الشيطان فبقدر ما يفكر العريس باليتيم المنبوذ، لا يصيب من وليمة العرس الا رائحة الطعام، فاذا حاول الدنوّ من المائدة تقاذفته سنابك الخيل في زحمة المهرجان والزفة القائمة.

وأنا لم أغسل رجليّ باللبن، بل غسلت جيبي من المال لأشتري مثل اللبن الذي كنت تستحم به قدماك، فالاستحمام هذا لا تحلم به أجمل سيدات باريس المترفات، ولا كواكب هوليود. ولقّبت بالعفيف البارّ ولقد أنجبت قبل النكبة عشرة أولاد، ثم ضاعفت هذا القدر بعد الشفاء فنيّفت على العشرين، فيا نعم الخصب ويا نعم القرين، لقد سيّجت على العفة بسياج مكين.

واذا كنت قد اصابك قرح من باطن قدمك الى قمة رأسك، فأنا قد تغلغل دائي في العظام وأذابَها فعجنها بالصديد. وتناوشني المباضع فسالت روحي عليها تسع عشرة مرة، وترصّدني الموت عشر مرات فلقيته وجهاً لوجه، فأين أنت من الشفار المرهفات تقطّع الأوصال وتتكسر النصال على النصال، فلا ينجو من وخز الابرة الا وجهك الكريم.

ولقد سمّرني الالم مستلقياً على ظهري تسع سنين متواليات، لا أتحرك فيها إلا بقدر ما تتحرك الخشبة على الماء الراسب، وانطفأت

زهرة صباي في المستشفيات حيث قضيت من الاعوام ستة.

وهذا هو العام الرابع عشر لمرضي الوبيل واستشهادي الطويل ولقد لفّني الجبس تسعين يوماً وتسعين ليلة موصولة الأنات، بالآنات، لهّابة الزفرات. دونها لفح الهجير، ونار السعير، فأنت مني بمنزلة الحصاة من القفار السباسب أو كأحد الاقزام بجانب الاهرام. وتذمرت من الجلوس على الرماد وأنا تمنيته ولو على شوك القتاد. وأخذت خَزفة لتحك بها جسدك فقل لي رحمك الله بمَ أحكّ العظام، وجراثيمها أبداً في احتدام ونارها في ضرام.

اما زوجتي يا ايوب فهي اصبر من زوجتك. اما تلك فقالت لك لِمَ تعتصم بسلامتك جدّف على الله ومت. واما هذه فقالت لي سبّح الله تحيا. وكنت اذا ادمعت عيني مرة خنقتها العبرات، أو حزّ المبضع في اوصالي مرة حزّ في قلبها حزات.

قامت على ضمد جراحي ومسح دموعي، قيام الأم على وحيد مريض، موصولة حياتها بحياته؛ فكانت عندما يلوّح الخطر غبّ عملية تهجر النوم وتكتم عني الهلع واليأس، ويستحيل ذلك الى عذاب دفين لم تبلغه انت في أوج عذابك، حتى اذا أرداها النعاس تهاوت على مقعد أو على ارض غرفة المستشفى القارّة، في ليالي الصقيع والزمهرير. فأين قسوة زوجتك من حنان زوجتي، وجمود تلك من رأفة هذه؟

وقلت إن ذوي قرابتك خذلوك وشمت بك حُسّادك وأوباش الناس وسفلتهم. أما أنا فاني انزه قلمي عن تناول هؤلاء بذكر، لانهم رجس تعجز عن تطهيره زوفى داود، ومزامير التوبة وصلوات الاولين والآخرين.

أما أصحابك فثلاثة، وأما أصحابي الخلّص فدون العشرين وفوق العشرة وهم اعرق ولاء، وأكثر وفاءً وأعفّ لساناً، وأحنى جناناً لا ينكأون الجراح ولا يزيدون في الطين بلة. اما أصحابي الوهميون فدون اصحابك بل دون الدون، يشعرون وكأنهم لا يشعرون. أصحابك لما رأوك بكوا وشق كل واحد رداءه، وذرّوا تراباً فوق رؤوسهم،وجلسوا معك على الارض سبعة أيام وسبع ليال لم يكلمك أحدهم بكلمة لانهم شهدوك جدّ حزين. أمّا اصحابي الوهميون فشقوا صحيفة المودة وذرّوها في الهواء هباء، وتطيبوا (بالكولونيا) ورتعوا بعيدين عني في دعة وخصب، عشرة أعوام لا يكلمني احدهم بكلمة ولا بكتاب ولا بالهاتف. ولو جاؤوني لغمرتهم بالنكات ولدفنت آلامي في صدري واعتصمت بعزة نفسي وإبائي. أما انت فقد خلعت على عائديك من الهموم ما ينفّر الأُسْد العطاش عن مواردها. وحمّلتهم من الاحزان ما لو حمله الربيع لتعطّل الشذى، وصوّح الزهر،وما لو وقع على البحر لغيّض البحر. وتقول التوراة بعد كل ذلك أنك فتحت فمك وليته ظل مغلقاً الى الأبد إذن لكان صمتك ابلغ، ولظللت. في هالة

من الكرامة والوقار. فأين أنت من الصبر الجميل اذ تقول: (لا كان نهار وُلدت فيه ولا ليل قيل فيه قد حبل برجل) الى آخر هذا السيل من اللعنات. وقد تبجّحت ببراءتك وعاتبت الله، وجعلت نفسك أعدل منه وأبرّ، وسوّيته بالانسان وندمت على تقواك. وقد تنزل الله لمخاطبتك من العاصفة مِنّةً منه وكرماً كما تنزل لمخاطبة اليهود من قبلك يمطرهم المنّ والسلوى فيعبدون البعل، وينير طريقهم بعمود الغمام فيجدّفون عليه، والمسيح يحي موتاهم فيميتونه على الصليب.

ولم تكفّ عن التذمر والسباب إلا بعد الجدل والاخذ والردّ، وقد نفد قاموس غضبك فلم يبقَ فيه إلا صفحة المغلوب على امره، المرغم على التسليم بالامر الواقع، اذ ذاك فقط القيت السلاح.

اما انا يا ايوب وبعد اربع عشرة سنة لقيت فيها الموت ألف مرة وذقت فيها من العذاب ما لو سمعت به اذنك لندّت عن رأسك هلعاً ولمادت بك جبال حوران فزعاً، فلم يرتفع لي صوت بالشكوى، بل سألت الله ان يوليني نعمة الصبر. وانما المستقبل سرٌّ ختم عليه بختم العليّ. ومن يدري فقد اكفر واتذمر ولكنني حتى الآن لم أقل هجراً بل قلت: اللهم انما الحياة الدنيا هي وادي الدموع، والفلسفة الصائبة هي فلسفة الالم. فاذا تخلل الحياة نهلات من رحيق الملذات فانما هو شذوذ والتواء عن الصراط، والويل لمن يكرع اللذات موصولة، لا يستفيق من سكرة إلاّ تأهباً لأخرى وإنما يفعل ذلك هرباً

من الحقيقة لأن الحقيقة ألم.

اشكرك اللهم لانك طهرتني بالألم، وصهرت روحي في مصهر العذاب لتأخذني نقياً اليك، فغسلتني بنداك السماوي كما يغسل الطلّ الاشجار المثقلة بالجراثيم والغبار فتلمع وضاءة في شمسك، وتنعكس عليها اشعتك، فتدبّ فيها الحياة، وينوّر الزَهر ويحلو لي الثمر. اللهم ليس عذابي بجانب نارك شيئاً مذكوراً، ولقد كانت حياتي كلها ذنباً كبيراً. متعتني بالصحة فانصرفت الى الباطل، ووسّعت عليّ في الرزق فأنفقته في معصيتك. لقد جرّعتني كأسا مرّة ولكنها دون ما استحق فاذا زدتني بعد استزدت.

وبعد سنوات سبع صحا جوّك يا ايوب واقلعت سماؤك،وطاب عيشك، وبدّلك الله من العسر يسرا، وضوعف لك في المال والبنين فكانت العقبى خيراً لك من الأولى، وحدثت ربك بعد عمر مديد اما انا فاحسبني في الفصل الاول من المأساة الشكسبيرية. وانما توقّع الشر آلم من الوقوع فيه.

فماذا بقي لك يا ايوب من عرشك وسلطانك في مملكة الشقاء بعد هذا كله، وانا لم احدثك إلا يسيراً،ولم اطلّ عليك إلا من باب النفق المظلم،ولكنك لو غلغلت في دياميس حياتي لندمت على تدوين سفرك، ولندم موسى على وضع المقدمة. ولا يكبر عليك أن ينتزع منك صولجانك لبنانيّ جاء في الزمن الاخير، فلا تنس ان على هذا

الشاطئ الملهم خلقت حروف الهجاء التي جسّدت بها شقاءك، وأننا السبّاقون حتى في الألم، مخلدون في عالم الفكر حتى يرث الله الارض وما عليها وهو خير الوارثين.

مناجاة بولس

عبّر بولس عن القرب الالهي بصدق وعكس حالة الخضوع البشري في ساحة الرب، فجاءت كلماته مؤثرة تمس شغاف القلوب وهو في كل هذا كان يعي ما يقول ولكنها الآلام والمعاناة قد كشفت له حقيقة الانسان والوجود ومبدع الوجود.

ومن خلال هذه المحنة الطويلة اكتشف بولس كانسان مبدأه ومصيره والطريق الذي يتوجب أن يعود فيه من حيث أتى.. وهو طريق أختاره بإرادة وشجاعة.

واذا كانت التوبه تعني العودة فانها أيضاً في لغة بولس تعني ولادة ثانية.. ولادة مبرأة من كل ما يشوب النفس الانسانية من غررو وكبرياء فارغين.. الكبرياء لله.. لله وحده..

لقد بلغ بولس مرتبة الايمان وهي مرتبة تؤهله لولوج الملكوت ملكوت السماء؛ اصغ اليه وهو يناجي ربّه في هدأة الليل وغمرة الظلام والناس نيام:

اللهم ها أنذا أتوب اليك توبة نصوحاً فلا تغلق في وجهي باب

رحمتك، فأشفِ نفسي بقدرتك. واذا كان الألم الصارخ الذي يحزّ في جوارحي نداء منك للنعجة الضالة، فحبذا النداء الموصول يبلغ أعماقي، ويبعثني خَلقاً جديداً، وطالما فتحت بمثل هذا الصوت الخفيّ قلوباً غلفاً وآذاناً صُمّاً.

لقد استعبدتني الخطيئة بما مدت حولي من العوسج فاستأصل بنعمتك هذه الاشواك التي خنقت زنابق الخير، لعل تلك البراعم الدفينة تنمو في حرارة شعاعك القدسيّ، بعد أن اكتنفها الظل طويلاً حتى عادت نباتاً بالقوة فاجعلها نباتاً بالفعل.

عبيدك هم الأحرار واحرار العالم هم العبيد، فحطم قيودي ولو بمطرقة الألم فأتفلت من هذه السلاسل بعونك.

اللهم اجعلني وديعاً وبدّد كبريائي لئلا أحاول تبرئة نفسي قدامك، فازداد خطيئة على خطيئة وشرّاً على شر. وانما الكبرياء أشد خطراً عليّ من كل ما ابتدع الشيطان من حيل، ونصب من أشراك. ومن أعلم منه بمضاء هذا السلاح يجرده على الضعفاء، فاذا بهم يعينونه على أنفسهم فيا لضحايا الغرور.

اللهم خففني من أوزاري، ومدّني بجناحين أرتفع الى الذرى فأنشق هواءً لم يتلّوث بعفونة الأرض.

ولا تكن توبتي اليك سطحية كتوبة الفريسيين بل اجعلها ناراً تحيل أمسي رماداً، فيولد من هذا الرماد بشر جديد تدعمه نعمتك،

فتستقوي فيه عناصر الخير على جراثيم الشر، وتظهر عليها كما يظهر الضحى على قطع الغمام. أنقذني من الوحل الذي تزلّقت فيه كثيراً وخذ بيدي لئلا أعود الى السقوط، فان قدمي ثقيلة مشدودة الى التراب، منه جاءت واليه تحاول الاياب. وانا لست ملاكاً ولن أكون فلا تتركني أعود حيواناً.

اللهم اجعلني عبرة لهذا النشء الطالع الذي يتفلسف عليك فتارة يمنّ عليك بالوجود، وطوراً ينكر وجودك، وقد أضلته الشهوات وأغواه الشيطان؛ متجسداً تارة في ابتسامة حلوة وطوراً في كتاب زنديق أو فاجر. وها أنذا أنادي هؤلاء الفتيان من مختبر الحياة، وقد ذقت مرّها ولم أجد فيها حلاوة إلا منك وبك لأن لا معنى للحياة بدونك. تستخرج من الشر خيراً لحكمة منك تخفى على عقولنا القاصرة، إذ لا نرى إلا ناحية واحدة من الأمور، وأنت وحدك تراها جميعاً، لا يحجبها عنك الزمان؛ لانك السرمدي الأبدي خالق الزمان والمكان وما فيهما.

اللهم عليك توكلت، فالمتكل على سواك انما يضع قدمه في الفراغ الرهيب، فاعصمني بنعمتك من أباطيل الدنيا وزخرفها فانها فاجرة تفتن في ضروب الاغراء والسحر. تروح بلون وتغدو بألف لون فيزيغ البصر، ويطفي الفؤاد، ويهوي الانسان الى حيث لا تريد ولا يريد.

وما كنت سبحانك بغافل عن الانسان، فقد وسعت عنايتك كل

شيء حتى رآك الحلوليون في كل شيء بدءً من العصفور حتى الكوكب المتألّق بالنور.

اللهم لئن شللتني عن الحركة وعزلتني عن العالم الخارجي، فشلّ قلبي عن الخطيئة، واعزلني عن السيآت، وليكن هذا المطهر اليسير بديلاً عن مطهرك العادل، فأكون قد أسلفت في هذه الدنيا بعض ما يبهظ الكاهل من حساب الآخرة، ولترجح كفة الرحمة على كفة العدل.

اللهم اني معلّق بخيط فوق هوة الأبدية واني استرحمك يوم أذن بانقطاعه، ان تهزني هزّا رفيقا لأرفع عينيّ الى فوق ثم اطبق اجفاني على آخر قبس من ضيائك.

مختارات من مختارات

في عام ١٩٦٧ اقترح أحد اصدقاء بولس ان يختار من أشعاره التي ناهزت الثلاثة عشر ألف بيت مجموعة شعرية يقدمها الى الجيل؛ في عصر لم يعد فيه وقت للقراءات الطويلة.

ولم يكن بمستطاع بولس أن يختار، لأن أشعاره هي فلذات من كبده كما عبر عن ذلك في مناسبة.

ولكنه نزل على رغبة الصديق فاختار من كل حقل سنبلة، وقد رأينا أن نختار من كل سنبلة حبّات.

من ملحمته الرائعة عيد الغدير هذا المقطع الذي يصور لحظات من ليلة طويلة أرق فيها الامام علي؛ فقد كان يشعر أنها الليلة التي اخبره بها النبي ﷺ ليلة الاغتيال.. اغتيال الشمس؛ أجل كانت ليلة التاسع عشر من رمضان من سنة ٤٠هـ.

أرق الليل لا يذوق المناما ... غير ما تخطف العيون لماما

ليلة تصبغ النجوم بلون الهمّ ... حتى الظلام يخشى الظلاما

وأحسّ الأمير مثل انقباض ... الورد إما يقطّب الاكماما

في عميق الوجدان رعش ... أحاسيس توالت دقاتها إبهاما

ومن ((ألم)) هذا المقطع الذي يصف جانباً من العمليات الجراحية:

سالت على حدِّ المباضع مهجتي ... فشفارها مصبوغة بدمائي

صبحي أمرّ من المساء فعيشتي ... موصولة الظلماء بالظلماء

أواه لو كان الرقاد يزورني ... لرضيت من دنياي بالاغفاء

ومن قصيدته وردة الغاب:

يا ليت كنت فراشة ... خضراء من لون الغصون

فألفّ نفسي بالطيوب ... ولا أبين لمستبين

يا طيب هذا الحبس لو ... يفنى به عمر السجين

وأظلّ رهن السّحر لا ... يصحو الزمان ويفتديني

لا الشمس تفضحني ولا ... الأوراق يوقظها أنيني

ومن ((لبنان)):

جاور الأنجم واحتلّ السحابا ... جبل مُهّد للفردوس بابا

تستحم الشمس في مفرقه ... فإذا غابت فقسراً واغترابا

تحمل الاضواء للدنيا وقد ... نقلت عن جفن لبنان الخضابا

ومن ((الجنّة السمراء)):

خلع الصباح على مخاملها السنا ... فتسربلت منه بأي رداءِ

عاجيّة اللمحات نيِّرة الرؤى ... فكأنها مغموسةٌ بضياء

وهذا مقطع من قصيدته ((الى شاعرة)):

غنّي فصوتك خلجة ... عذراء في قلب الأثير

غنّي فلحنك في المسامع ... كالسحاب على الهجير

جُنّت به النسمات ... والاصباح كفَّ عن المسير

جمعت بك الدنيا محاسنها ... على العمر الطرير

والفجر مدّ وشامه فعلى ... جناح الصبح طيري

ومن ملحمته ((عيد الرياض)) هذا المقطع يصف فيه عرس الشهيد

وحوريات الفردوس:

حيث يكسى الشهيد من سندس خضر ويسقى من طيّبات الراح

من أكفّ الابكار عرباً وأتراباً كديباجة الصباح الصاح

صاغهنّ البديع من ألق النور وعطر الخميلة الفوّاح[1]

هنّ وحي الرؤى وطيب الأماني ورفيف الشذا وحلم الملاح

في ضمير الجمال كنّ العذابا قبل أن يدحو البسيطة داح

كنّ فجر الأعياد في خاطر الدهر وفي الخلد مضرب الاتراح

كل حسن في الأرض، ظلّ لما في الخلد من باهر الجمال

ويعود بولس كرّة أخرى فيختار من قصيدته ((ألم)) مقطعاً آخر يقول فيه:

واهاً لأيام الشباب وبهجه والزهو حين جررت فضل ردائي

تختال في عزم الفؤاد فتوّتي ويطلّ من وضح الجبين روائي

لم يبق من نغم الصبا وفتونه الاّ حنين مبهم الاصداءِ

ذكرى من الماضي السحيق سللتها فتخضبت بالدمعة الحمراءِ

ومن ملحمته ((عيد الستين)) هذا المقطع:

---

(١) في الأصل: المفراح.

لبنــان يــا ملــك الجمــال متوّجــاً ... بــالاجملين علــىً وفــيض ســناءِ
متوسّــداً أنــف الــربى متأنقــاً ... ومــن الســحاب مــدثّراً بغطــاء
شخصت الى مغنـاك جـود قـرائح ... يطمعــن مــن جــدواك بــالاثراءِ

ومن ((وحده)) هذه الآهات:

بــــرم الســـــرير بمـــــدنف ... أعيــا الأُســاة فلــن تصــدّه
لا الليـــــــل زمزمـــــــــة ولا ... وضــــح النـــهار أزال وجـــده
مـــــا آهـــــــة في الارض الآ ... مـــن معينـــك مســـتمدّه
أيـــــوب أعـــــوزه الخلـــــود ... فجـــاء منـــك يـــروم خلـــده

ومن قصيدته ((عليّ)) هذا المقطع الذي يصور فيه مشهداً حزيناً من مشاهد معركة ((أحد)) وقد انتهت المعركة وجاءت فاطمة الزهراء تضمد جراح النبي وبعلها عليّ:

طبّيبيه بنــت الـنبي بمــاء الــورد. بــالآس نافحــاً بالنياســم
فلّق الهام يوم ((بدر)) وذرّاها، فخاض الجياد عبر الجماجم
وشّحيه بالغـار فاطمـة الزهـراء بنـت العلـى، وقـدس الفـواطم
ومَنــاطُ الســها، وأم شــهيد الطــفّ، والسُــجّد الأبـاة الاكــارم
باسمك الفخم سوف تسمو عروش والحضارات تزدهي والعواصم

ومن ((الحسين ثائراً)) هذه الابيان الرائعة:

يـا ذبيحـاً بكـربلاء تجلّـى ... المشـرق الحـرّ مـن غـروب نهـاره
أيقـظ الخـاملين في كـل قطـر ... غـاب حـق الحيـاة مـن أبصـاره
قـبس الضـوء عـن رسـالة جـدّ ... شـرف العُـرب أنهـم في شـعاره
أمّـة الضـاد حسـبها في المعـالي ... أن تحلّـى بحبكـة مـن دثـاره
يـا صـراعاً مضّ الحسـين فـأدمى ... صـدره الحـرّ مؤذنـاً بانفجـاره
كـان ينجيـه أن يفـرّ ولكـن ... لمـح المـوت كلـه في فـراره
خاضـها وقعـةً مـع المـوت حـتى ... قيـل يمشـي لحتفـه باختيـاره
فـوق القسـط للبطولـة والمجـد ... وحـقّ الحيـاة قبـل انهيـاره

ومن ديوانه ((فلسطين وأخواتها)):

صهيون ليس الونى والجبن شيمتنا ... فكلنـا للمعـالي يعربيّونـا
في كل صدر صلاح الدين محتدماً ... وكـل تـلّ يـراه العـرب حطّينـا
مـن مـات منّـا جبانـاً مـدبراً فلـه ... ذلّ اللئـيم فـلا ينعـاه ناعينـا
ومـن يلاقـي المنايـا باسمـاً بطـلاً ... سحّت عليـه أغـاني الخلـد تأبينـا

ومن ((لبنان)) هذه الابيات الرقيقة:

يـا جبـال الـرز، يـا أخـات السـما ... طاب فيك الموت بعد العيش طابا
بـحّ ذاك البلبـل الشـادي وقـد ... طـار عنـه الـريش والشـاعر شـابا
أنـا لـو متّعـتُ فيهـا سـاعة ... لشـممت الصّـخر أو بسـتُ الترابـا

حكايات بولس

ساق بولس عدداً من الحكايات في كتابه ((مذكرات جريح)) ودخلت كلماتها وحوادثها في النسيج الفكري للكتاب واندمجت معه اندماج المطر بمياه النهر إذ سرعان ما أصبحت جزءً منه وهو اندماج يشبه اندماج الضوء بالضوء والهواء بالهواء؛ ذلك أن حكايات الكتاب كانت كامنة في أعماقه ثم استيقظت، لتأخذ طريقها الى الذهن ثم تسيل من قلمه، مع آهات نفسه قطرة قطرة. وربما استنجد بها للتخفيف عن الألم وادخال شيء من المتعة على نفوس قارئيه؛ ليكونوا له أصدقاء يذكرونه بابتسامة مشرقة مفعمة بالأمل، والأمل عزاء الانسان.. وها نحن نثبتها في آخر الكتاب لتكون مسك الختام.

[١]

((كان القرويون يملأون فراغ وقتي بزياراتهم فاسايرهم بالحديث، وأدرس نفسية الفلاحين والرعاة واتعرّف الى اسماء ابقارهم ومعيزهم؛ غير مستغرب شيئاً؛ لاني قرويّ يعرف الأرياف وشؤونها وكثيراً ما تراهم يطلقون على حيواناتهم اسماء تخرجها عن الجنس وتكاد تدخلها في باب الأعلام.. وحفظت بعضها وكنت اسألهم عنها فيغتبطون. ولا بأس بأن أقص عليك نادرة تدحض حجة القائلين

باحلال العامّية محلّ الفصحى[١] فلقد سألت أحد الفلاحين ذات يوم عما فعل في النهار الغابر فأجابني: (رحت اجيب جرّبان شفت الجثلان ضربتو بالبندي والبغريني) ومعنى ذلك أنه ذهب الى البريّة يجمع الصخر فشاهد الثعلب فرشقه بحجر صغير ثم رماه بحجر كبير.

فإذا كانت هذه حال اللغة العامية في قرية لا تبعد عن بيروت أكثر من ثلاثين كيومتراً فكيف السبيل الى التفاهم بالعامية بني سائر الاقطار العربية؟))

وتذكرني هذه الحكاية بجملة خبرية باللهجة العراقية لا يمكن سبر معناها أو فك رموزها حتى لو عقد من أجلها مؤتمر في الجامعة العربية سيما وأن كرسي العراق ما يزال شاغراً وهي: ((طبّت البزونة جوّه السكملي)).

[٢]

((هبط الظلام وليس في الغرفة سوى ضوء اشحّ من كف اللئيم الراضع. وسألت عن ممرضة الليل لأني مقعد ولي مطالب شتّى،

---

(١) بالرغم من احترامي وحبي لحامل لوائهم نسيبي الشاعر السماوي سعيد عقل.

فقيل لي انتظر فانتظرت. وأردت أن اقطع هذه الوحشة المذيبة بمحادثة رفقائي. فسألت أحدهم عن اسمه فقال: راشد النحاس وكان الرجل ألثغ فحسبته يقول (النحّات) بدلاً من (النحاس) وأوقعني هذا التصحيف اللفظي في خطأ، فتصورت رفيقي من أهل الفن الذين تنكّر لهم الدهر كما تنكر للعبقريين من قبل ومن بعد. وأخذت في تعزيته وضربت له الامثال وحدثته عن زملائه نحّاتي اليونان والطليان، وبينت له ما يلقاه الملهمون من البؤس والشقاء. وظل الرجل صامتاً صمت القبر؛ فحسبت أني نكأت جراحه وذكرته بماضٍ سعيد، وبآمال خضر طواها الزمن. ولك أن تتهمني بجهل الفراسة بعد هذا ولكن لا تنسى ان الضوء كان شحيحاً وبيني وبين الرجل مسافة خمسة أمتار.

ويذكرني هذا الحادث بنادرة مؤداها أن أميراً غضب على شاعره فسجنه بضعة أيام وكان في المحبس نفسه سجين آخر. ورأى الشاعر أن يخفف عن نفسه هذه المحنة فأخذ في الانشاد بلهجة مؤثرة. ولمح رفيقه يبكي فأعجبه منه هذا الشعور المرهف فشكره. ولشدّ ما كانت دهشته حين أعلمه سميعه أنه معّاز بكى لمشابهة بين لحية الشاعر ولحية تيس كان عزيزاً عليه فمات)).

[٣]

((فقال ليسوع وَمن قريبي؟ فعاد يسوع وقال كان رجل منحدراً من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص، فعرّوه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت فاتفق أنّ كاهناً كان منحدراً في ذلك الطريق فأبصره وجاز وكذلك لاويّ وافى المكان فابصره وجاز. ثم ان سامرياً مسافراً مَرّ به فلما رآه تحنن فدنا إليه وضمّد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وحمله على دابته واتى به الى فندق واعتنى بامره وفي الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتن بأمره. ومهما تنفق فوق هذا فأنا أدفعه لك عند عودتي. فأي هؤلاء الثلاثة تحسب صار قريباً للذي وقع بين اللصوص. قال الذي صنع اليه الرحمة فقا له يسوع امض فاصنع انت كذلك (لوقا من ٢٩ الى ٣٨))).

[٤]

((في حكايات لافونتين (Lafontaine) الشاعر العميق أن قروياً شكا الى سيده صاحب المزرعة ارنباً برياً كان يسطو على بقوله ليلاً فيأكل منها ما يأكل، ويفسد ما يفسد، فوعده السيد الزعيم بانقاذه من هذا العدو الجريء. وفي اليوم التالي لم يرُع الفلاح إلاّ الخيل تحيط ببيته من كال جانب. فتطلّع فرأى سيده على رأس كوكبة من الفرسان القادمين لمطاردة الأرنب؛ فنزلوا ضيوفاً على القروي واتوا

على ما في بيته من الزاد والخمر. ثم انهم همّوا بمطاردة الارنب فهدموا سياج الحديقة لتمكين الخيل من العبور، وأغارت الجياد تُعمل سنابكها في النبت الطرير. وما هي إلا ساعة حتى سُوِّيت الغراس اللدنة بالارض. اما البقول فعصرتها الحوافر ففار ماؤها في التراب، واعتلقت بقاياها بنعال الافرس. كل هذا والارنب في زاوية الحديقة يهزأ بالمطاردين السكارى. وانصرفت الكتيبة بعد ذلك وأبقت للقروي مجموعة من الخراب لا تستطيع مثلها كل ارانب الدنيا في مدى سنة.

اجل بقي الارنب المدمر ست سنين يرنغ في عظامي هانئا هازئا بالمطاردين، ولو ابصروه منذ البدء لقضت عليه ضربة خفيفة ولكنه سمن وبطر؛ فعاد سبعا ضاريا رهيف المخالب حديد الانياب يتخطر بين خدر وخدر، ويحتلّ الحنايا فيشقها كهوفاً، ويمهدها ليربض فيها ويتمطى بعد الشبع)).

[٥]

((وقد صحّ عندي بعد اختبار طويل ان النساء، وعلى الاخص الريفيات يتلذذن بالمآتم أكثر مما ينشرحن للأعراس. ولفظة المآتم نفسها تعني في الاصل اجتماع النساء ثم أطلقت على المناحة.

والندبة عند النساء نوع من الغناء، وهنّ يرتجلن الدموع كما يرتجلن زجليات الندب بصورة اصطناعية. واذا دخلت احداهن على

النادبات عمدن الى حيلة طريفة لحملها على البكاء. وتقوم هذه الحيلة بتذكيرها بأحد موتاها، وقد يكون الميت جدها الذي توفي قبل مولدها فتبكي أو تتباكى. وبعضهن يحملن كمية من الفلفل يضعنها في اعنيهن إثارة للدمع. وقد وقع لاحداهن مرة ان تمردت على الدمع فسألتها احدى النوادب عمن مات من أهلها، فقالت انها وحيدة ولم يزل ابواها وجدّاها قيد الحياة، ولكن امها اسقطت جنيناً ذكراً في الشهر الخامس من الحمل فندبن الجنين المذكور المجهول حتى بكت المرأة في آخر الامر)).

[٦]

((إن إحدى العوانس الدميمات، اللواتي نيّفن على الخمسين، استفاقت ذات صباح وقامت الى المرآة تفتقد وجهها فقالت:

- في الحقيقة اني سوداء اللون، عمصاء العينين، فطساء الأنف، ولكنني بعيدة عن الشهوات عفيفة.

وأسناني بديدة سوداء كعنزات تخلفت فربضت في زريبة ولكنني عفيفة، وان شفتيّ كمشافر النياق وعنقي كانبوب المدخنة ولكنني عفيفة.

واني مسحاء الصدر كالمهمه القفر، وان ساقي دقيقتان كسوق البجع ولكني عفيفة.

وكان الشيطان اذ ذاك في غرفتها على غير عادة لانه يلازم خدور الحسان فيعيرهنّ الغنج والملق واللسان ـ فنفد صبره وصاح: قاتلك الله يا غبية لقد عرضتك على الانس والجنّ؛ فلم يلتفت اليك أحد)).

[٧]

((وضربت لأصحابي مثلاً ردعاً لهم عن الامعان في التفاؤل مؤداه: ان ملكاً أُصيب بمرض وبيل، فأخذ طبيبه يطمئن الشعب كل يوم ببيان جديد، زاعماً أن الملك في طور الشفاء وتحسّن مستمر.

ومات الملك بعد أيام فقال أحد الظرفاء: أظن أن جلالته مات من كثرة التحسينات)).

[٨]

((في الاساطير ان راهبا كان يقرأ التوراة فبلغ هذه العبارة ((الف سنة في عينيك يا رب مثل أمس الذي عبر)) فرأى في هذا القول غلوّا كبيراً وتطرّق الى ذهنه الشك العميق بسلامة عقل داود، لان الألف سنة تتسع لأعمار عشرة من الرجال، لو قُدّر لكل منهم أن يعيش مئة سنة.

ألف سنة كمية من الزمن تبهظ التأريخ نفسه اذ تدول فيها الدول

وتنقلب الارض رأسا لعقب، فربما غارت في المحيط جزر بساكنيها، أو انثبقت من الاعماق جزر أخرى فكيف تكون الالف سنة كأمس الدابر؟!

وبينما كان الراهب غريقاً في التأمل مرّت به قبّرة وسقطت غير بعيدة عنه. فلحق بها يحاول اخذها وكانت كلما اوشك أن يقبض عليها تفرّ منه قليلاً بحيث لا ينقطع امله في ادراكها. وظلت تخاتله وهو جادّ في طلبها حتى ابتعد عن الدير مسافة شاسعة، والعصفورة لا تزال تطمعه فيها، فتارة تبدو مهيضة الجناح، وطوراً تتحامل على نفسها كأنها في الزحّافات. وما زال هذا دأبها حتى أعيا الراهب واختفت القبّرة. وانقلب الكاهن عائداً الى ديره وقد ملّ وأخفق وشاع في أعصابه الخور، وما صدّق أن بلغ باب الدير حتى أخذ يدقه دقاً عنيفاً، وقد فعل فيه الجوع فعله حتى توّهم حجارة السور خبزاً، ورائحة الشواء المنبعثة من المطبخ إداماً، فصاح به صائح من داخل من الطارق في هذا الليل؟ فقال: افتح سألتك بالمسيح ان تفعل أنا فلان.

ولشدّ ما كانت دهشته حين استدار المصراع على ذاته بحركة آلية لا عهد له بها من قبل، واذا به يواجه بوّاباً عملاقاً، وكان يترقب ظهور الأخ يوسف الهزيل الجسم القصير القامة، وأنكر كل منهما صاحبه. وقصارى القول إنه جيء بالراهب الغريب الى الرئيس،

فاستوضحه أمره فقص عليه الخبر. وروجعت سجلات الدير في اليوم التالي، فوجد في احدى صفحاتها ـ وقد عاثت بحوافيها الأَرَضة (العث) ما هذا نصه: خرج القس يوحنا في هذا الصباح من الدير ولم يرجع)).

[٩]

((قيل ان احد الملوك ابتنى قصراً ضخماً في حديقة لا تختلف عن صفة الجنة إلا انها في الأرض. فتنافست الحاشية في اطراء هذه الأبهة الا حكيماً لزم الصمت. فسأله مولاه في ذلك فقال يا مولاي هب انك عطشت حتى أشرفت على التلف، أفما كنت تفتدي حياتك فتعطي هذا القصر وما حوله مقابل شربة ماء؟ قال الملك بلى. قال الحكيم فاذا استعصت هذه الشربة وانحصرت بولاً حتى قاربت الهلاك أفما كنت تعمل على إخراجها ولو انفقت في ذلك القصر والحديقة؟ قال الملك بلى. قال الحكيم إذن فقيمتها شربة وبولة.

قيل فاعتبر الملك وزهد في الدنيا)).

[١٠]

((وأثقل ما لقيته من عوّادي الذين يُعدّون بالألوف، كثرة الاسئلة والدخول في التفاصيل والتعليق على الشروح وإبداء الآراء

السخيفة،وخصوصاً إذا كان الجليس محدود الفهم يفترق عن الحيوان بالدرجة لا بالنوع. وفي مدة إقامتي في المستشفيات وقد نيّفت على ست سنوات كنت معرّضا لاستقبال امثال هؤلاء الآتين لعيادة ذويهم من كل فجّ وصوب. وبينا كنت اطالع جريدة ذات يوم، دخلت غرفتي سيدة كان نسيبها جاري في المستشفى، فألقيت الجريدة من يدي واحتفيت بالسيدة الانيقة الهندام، الرشيقة القوام، الزخّارة الكلام، وقد كلّفتني أن أقص عليها قصتي فاكتفيت بأن سردت وشلاً من بحر ولما قلت لها إن حرارتي بلغت عقيب العملية الواحدة والاربعين قالت: هوّن عليك فقد بلغت حرارة أخي الخامسة والاربعين. فأخذت الجريدة واستدرت شطر الحائط وانقطعت شهزاد عن الكلام وانصرفت)).

[١١]

وزارني مرة وجيه كبير وكلّفني جريا على التقاليد المعروفة أن أحدثه عن مرضي ـ وكانت الأجوبة التي كررتها الوف المرات في الوف الايام توازي الاشغال الشاقة التي يحكم بها على المجرمين ـ فأجملت الجواب يقيناً مني بجهل صاحبنا، اذ علمت أنه في اليوم السابق دخل غرفة جارتي فساءلها عما بها فقالت هي عملية جراحية، وأغرقت في الضحك لما زاد صاحبنا: أهي عملية البروستات؟

فعلى رسلكم أيها العوّاد، حسب المريض آلامه)).

[١٢]

((وكنت يومئذ في مستشفى الصنائع، فجاء مغربي يعود أحد أصدقائه فأدخله صاحبه الى غرفتي وعرّفني بالمغربي المتحضّر ولنسمّه السيد يوسف مثلاً.

كان الرجل جندياً في الجيش الفرنسي أثناء الحرب الكونية الأولى ثم استوطن بيروت وتزوّج ورزق أولاداً. وأكّد لي أن في استطاعته شفائي فأذا عجّلت عليّ في اللوم أيها القارئ واتهمتني بقصر النظر أحلتك على قصة الكاهن وأجيره إبراهيم الواردة في فصل ((الصداقة)) من هذا الكتاب[١]. وأعلمني صاحبنا أنه لا يتقاضاني أجراً فحسبه من المرضى الذين يشفون على يده ـ وهم كثر ـ أن يترحّموا على أجداده الصالحين. قلت فليرحمنا الله وإياهم أجمعين. وجاءني في اليوم التالي بتسع برشامات، وجازفت فأخذتها في ثلاثة أيام فلم تنفع ولم تضرّ. ولشدّ ما ضحكت من نفسي عندما توالت زيارات صديقي الجديد يوسف فسألته عن مضمون البرشامات ـ وكنت قد فتحت واحدة منها فوجدت فيها صمغاً زكي الرائحة ـ

---

(١) الحكاية ((١٥)).

فأخبرني أنه نوع من البخور يطلع من شجرة مقدسة، تقدست بملامسة ثياب عيسى إذ أن العذراء مريم كانت تغسل رداءه وتنشره على تلك الشجرة العجيبة. فسألته عمن أخذ الطب فقال إن في المغرب عائلات تتلقاه بالوراثة.ومختصر ذلك أنهم يجاورون جبلاً ضخماً ينشقّ مرتين في كل قرن ويتكشف عن مغرة هائلة (ذكرتني بمغارة كاليبسو في أوديسه هوميروس) يدخلها طلاب العلم بعد أن يتزودوا بمؤونة سنة كاملة، ويلتحم الباب فور دخولهم؛ حتى لا ترى له أثراً ثم يعود فينفتح من تلقاء نفسه في نهاية السنة. أما المغارة فاسمها مغارة دانيال النبي. وقد نُقشت على جدرانها علوم الأولين والآخرين، فينسخ الطلاب المزوّدون بكميات هائلة من الورق كل ما يبغونه، ويخرجون في نهاية العام وقد عمرت رؤوسهم بأسمى ما بلغه الفكر البشري)).

[١٣]

((قيل لما جاء رسول السفّاح ليدعو عبدالحميد الكاتب الى الموت، وقد أرهف سيف الجلاد، وجاشت النقمة في غراره. كان عبدالحميد مع صديقه الحميم عبدالله بن المقفع. وكان رسول الخليفة لا يعرفهما شخصياً فسأل عن عبدالحميد فتصدّى له عبدالله وقال انا طلبتك. وقامت مشادة عنيفة بين الصديقين وكلاهما يدّعي أنه

عبدالحميد. وأنت ترى انهما لم يتسابقا الى جائزة او منصب بل الى الموت)).

[١٤]

((قيل ان افلاطون حدد الانسان بكونه حيواناً بدون ريش يسير على رجلين. فجاء (ديوجين اللايرتي) بديك نتف ريشه والقاه في المجلس صارخاً ها هو انسان افلاطون. وانما هؤلاء البشر في طبقة ديك ديوجين لو لم يكن اطرى لحماً، واقل زهواً، واخف شراً. أما الكلب فقد كان ـ قبل أن تفسده المدنية الزائفة فتحلّه محل الولد الوحيد ـ مضرب المثل في الحفاظ والوفاء، والصبر على البرد والجوع والاستماتة في سبيل صاحبه.

وبحسبك ان تعلم ان الاديبة المغفور لها ميّ زيادة لم يمش في جنازتها سوى نفر بينهم كلبها الامين الذي سُلخ عن قبرها سلخاً بعد ان واراها التراب، ولم ينقصه في موقفه هذا إلا الدمع والعقل. أما الاخلاص فكان بادياً في عينيه. ولك بعد هذا أن تتفلسف فتجرّد هذه الحيوانات الوفية من خصائصها وتدعوها آلات متحركة،ولك أن تجردها من كل شي إلا من الاخلاص)).

[١٥]

«قيل إن كاهناً ريفياً كان يحب الفاكهة والحلوى، فهبط بيروت في اسبوع المرفع، وعاد الى الدير مصحوباً بعلبة مليئة (بالبقلاوة) الفاخرة. وأدركه الصوم في اليوم التالي فلم يمدّ اليها يداً لان السمن محرّم عليه. وعانى صاحبنا ما عانى في كبت شهوته، وراض نفسه على الحرمان منتظراً حلول عيد الفصح.

وكان أجيره ابراهيم يكنس الغرفة في غياب معلمه، ويستطيل على الكنز المرصود فينفض الغبار عن العلبة ولا يعفّ عما في داخلها. وجاء العيد، فاتجه الكاهن بقلبه وفمه الى المخبوءة تحت السرير، تلك التي راودته عن زهده سحابة خمسين يوماً فثبت، واعتصم بالانقطاع عن الدسم، فوجدها أخلى من رؤوس الاغنياء الوارثين. فساء ظنه بابراهيم ولكن القرينة وحدها غير قاطعة، فرأى أن يحمل المتّهم على الاقرار من تلقاء نفسه، فدعاه الى الاعتراف، والاعتراف في عيد الفصح فريضة على التائبين. فلبّى ابراهيم الدعوة، وجلس الكاهن في منبر التوبة، وركع الأجير وسرد خطاياه، وكتم خطيئة الشراهة. ونفد صبر الكاهن، وتراءت له العلبة البائدة؛ فقال بحدة ومن أكل البقلاوة يا ابراهيم؟ فتظاهر المتهم بالصمم وقال لم أسمع. وعاد الكاهن فرفع صوته وكرّر السؤال ثلاث مرات، وأعاد

الأجير الجواب نفسه فسخط المعلم؛ فأقنعه الخادم بأن المكان مسحور، وأن الراكع يصاب بالصمم. فنهض الخوري غاضباً وركع مكان الأجير. ودخل ابراهيم كرسي الاعتراف وخاطب معلمه قائلاً من أكل تفاحة جيراننا في الصيف؟ (وكان الكاهن أكلها) فصمت وقال لم أسمع. حقاً يا ابراهيم ان من يجلس مكانك يصاب بالصمم)).

ملحق

بولس والسياب

لاتوجد ثمة مناسبة لتعقد مقارنة بين بولس سلامة وبدر شاكر السياب شاعر العراق الكبير، غير ان الدارس لحياة الشاعرين الراحلين لا بد وأن يقفز اسم أحدهما عند الحديث عن الآخر.

عقدين من الزمن فقط يفصل بينهما فقد سبق بولس معاصره في الميلاد بربع قرن من الزمن وتأخر في رحيله بحوالي ١٥ سنة.

ولا نجد اشارة في الكتابات عنهما أنهما التقيا بالرغم من زيارة بدر شاكر للبنان في صيف ١٩٦٠ وتعرّفه على عدد كبير من الشعراء[1].

ولم تكن هذه الزيارة هي الوحيدة؛ فقد كان السياب يتنقل بين بيروت وبغداد وباريس ولندن من أجل العلاج بعدما ظهرت عليه امارات التدهور في صحته[2].

وأغلب الظن أن بولس قام بزيارة الى العراق ولكن لا يعرف تاريخها.

ثمة أبعاد تجمع بين الشاعرين يمكن عدّها من المشتركات ولكن

---

(١) ديوان بدر شاكر السياب: ٢/ ٧٣.

(٢) ن. م: ٧٨.

الاختلاف في الظروف بين بيئتي الشاعرين ربّما باين كثيراً بين اتجاهيهما واهتماماتهما فالعراق كان يموج بالأحداث بعكس لبنان الذي كان ينعم بالهدوء الى حد كبير.

أما المبررات وهي ليست كافية كما ذكرنا في الحديث عن السياب فهي النبوغ في الشاعرية وريادته لشعر جديد هو الشعر الحرّ ومعاناته من مرض عضال لم تنفع معه كل وسائل العلاج، ما جعله يتغنى بأيوب الصابر وكذا عودته الى الايمان بعد صخب طويل مع الحوادث وضياع في متاهات الفكر البشري اضافة الى تغنيه بالمسيح عليه السلام وارتفاعه وتساميه الى مستوى الانسانية وتحرره من الأطر الضيقة.

السياب محطات في حياته وتجاربه

ولد بدر شاكر السياب عام ١٩٢٦ في قرية «جيكور» احدى القرى الواقعة على ضفاف شط العرب في جنوب العراق، وتبعد عن أبي الخصيب حوالي ثلاثة كيلومترات وأبو الخصيب يقع جنوب البصرة على بعد ٣٠ كم تقريباً.

في ظلال غابات النخيل العراقي نشأ السياب وقضى طفولته وكان في السادسة من عمره عندما تلقى أول صدمة بوفاة أمه التي خطفها القدر عام ١٩٣٢.

وقد أثر ذلك كثيراً في حياته بحيث ظل طيفها يواكب مساره

الحياتي سنوات طويلة ربما استوعبت عمره كلّه.

وحتى في قصائده الاخيرة وقد أحس بدنو موته كان يريد الرحيل الى أمه:

فيا قبرها افتح ذراعيك..

اني لآت بلا ضجّة دون آه(١).

انتقل الى ابي الخصيب لاستكمال دراسته الابتدائية في مدرسة ((المحمودية)) فقضى سنتين هناك.

ولأول مرّة يرى هناك ((الشناشيل)) وهي شرفة تصنع من الخشب المزركش ذات نوافذ زجاجية ملوّنة.

وأصبح الوصول الى الشناشيل أحد أحلامه؛ فخلفها توجد الصبايا المنعمات. وقد صدرت له فيما بعد مجموعة شعرية سماها ((شنانشيل ابنة الجلبي)).

وكانت صدمة أخرى بانتظاره عندما قرر والده الزواج تاركاً ابنه في عام ١٩٣٥ في منزل جدّه.

وفي هذه الفترة المبكرة من حياته بدأ ينظم الأشعار بالعامية وبالفصحى وفي عام ١٩٣٨ انتقل بدر الى مدينة البصرة وسكن في بيت جدّته لأمه.

---

(١) ديوان السياب: ١ / ٢٣٧ نداء الموت.

وكان بدر يحنّ الى قريته ومسقط رأسه جيكور فيزورها كلما واتت فرصة؛ ويساعد جدّه في رعي قطيع صغير من الاغنام.

كان قلبه يتفتح للحب وكان ينشد قلباً عامراً بالحنان ليفيض عليه بالعاطفة التي فقدها مبكراً برحيل أمه.

وسنجد في قصائده اسماء صبايا عشقهن في تجارب من الحب الخيالي لانه حب من طرف واحد، وكان يوهم نفسه بأنهن كن يبادلنه الحب، ولكن الحقيقة لم تكن سوى سراب في سراب؛ فلم يكن هناك من يأبه أو يكترث كثيراً لذلك القروي الذي حرم من جمال الهندام وبسطة الجسم.

وقد انفجرت آهاته بعد تجارب صاخبة وعبر بمرارة معترفاً بأن:

كل من أحببت قبلك ما أحبّوني..

لقد كان ينشد الحب وكان يبحث عنه وقد ظل سنوات طويلة يفعل ذلك:

فأبحث بين أكوام المحار لعل لؤلؤة ستبزغ

منه كالنجمة

وإذ تدمى يداي وتنزع الأظفار عنها لا ينز

هناك غير الماء

وغير الطين من صدف المحار فتقطر البسمة

على ثغري دموعاً من قرار القلب تنبثق

لأن جميع من أحببت قبلك ما أحبّوني

وقد ظلّت المرأة بالنسبة للسياب عالماً مسحوراً يدعوه لاكتشافه.. وظل امتلاكه لامرأة حقيقية حلماً بعيداً عانى منه كثيراً.

في عام ١٩٤٢م توفيت جدّته.

وفي عام ١٩٤٣ كان قد بدأ دراسته في ((دار المعلمين)) ببغداد فيما كانت الحرب العالمية الثانية تشغل بال العالم كله.

وكان بدر يتعاطف مع ألمانيا كرهاً للانكليز الذين يحتلون بلده فعلياً؛ بالرغم من وجود حكومة عراقية على رأسها ملك عربي.

وقد ألقى قصيدة حماسية بعد اعدام رموز حركة مايس التي قادها رشيد عالي الكيلاني.

في مدينة بغداد التي يراها لأول مرّة بدأ بدر يرتاد بعض المقاهي البغدادية التي كانت ملتقى الأدباء والشعراء.

وكانت بغداد نفسها تموج بالاحتفالات والمهرجانات السياسية والثقافية، وبدأ صعود بدر؛ الذي تألق بعد قصائد لفتت اليها الاوساط الادبية والسياسية.

وفي تلك الفترة عرف بدر شيوعياً غير أن الدارس لتفاصيل حياته سيكتشف أن جنوحه الى الشعارات الشيوعية انما تكمن وراءه بواعث انسانية وتطلعات الى العدالة الاجتماعية وقد كان ذلك في تصورات الجيل الأول ممن آمنوا بالشيوعية.

من أجل هذا سوف نجد بدر يصطدم بهم لأنه كان يحمل في مخزونه الروحي ما يتناقض والمبادئ الشيوعية.

وقد دفع ثمن اصطدامه معهم ثمناً باهظاً لم يكن قادراً على تحمله.

كان بدر رومانسيا في تطلعاته وتصوراته عن مستقبله كانسان وشعب ووطن وكان يبحث عن شيء لا وجود له أو لم يحن أوان ظهوره بعد.

وبسبب مرارة الواقع ودهشته لما يواجهه من ظروف فرّ بدر باتجاه الأساطير، وقد حاول تبرير ذلك قائلاً: ان الاسطورة اصبحت من ضرورات الشعر في عالم تسوده قيم مادّية، فالاساطير ما تزال تحتفظ بحرارتها لأنها ليست جزءً من عالم اليوم، كما انه يستطيع ان يبني منها عوالم يتحدّى بها منطق الذهب والحديد[١].

الاسطورة.. التاريخ.. الدين

وينبغي لنا اذا ما اردنا ان ندرس تطور الرؤية الدينية لدى بدر شاكر ألاّ نضع الاسطورة في قبال الحقيقة والاّ نجعل الاسطورة مرادفة للخرافة. فالأساطير اصبحت رموزاً تنطوي على قدر من

(١) ن. م: ١ / مقدمة الديوان د د د

الحقيقة وعلى مساحة من الخرافة.

ولا نريد التبرير لبدر في استغراقه في الاساطير ولكن يجب أن نعترف بأن كثيراً من الاساطير التي وظفها بدر في شعره اضفت على قصائده سحراً وجاذبية وجمالاً يأخذ الألباب.

ولكن الى أي مدى يمكن الدفاع عن الأساطير؟

يجب أن نعرف أن القرآن الكريم قد تعرض لذكر الأساطير في حدود احدى عشر مناسبة ولكنا لن نجد خلال ذلك أي هجوم عليها ومعظم استخدامات ((أساطير الاولين)) جاءت على لسان من واجهوا الرسالات الالهية معتبرين اياها جزءً من أساطير الأقدمين.

وبالرغم من صعوبة تحديد تعريف شامل للأسطورة وذلك لغموضها وغموض دورها الوظائفي في حياة الانسان قديماً وحديثاً

وهي عموماً حكاية تنتقل عبر الأجيال رواية؛ قد تصوّر حياة الآلهة مثلاً أو أحداث خارقة للأبطال.

وهي في كل الأحوال تؤدي دور الدين لدى بعض الشعوب البدائية ودور التاريخ لدى بعض الأمم المتحضرة نسبياً (اليونان، الرومان و..).

وبالرغم من وجود بعض من يعتبرها مجرّد ((تحريفات لغوية))[١]. ووجود من يراها ابتكاراً بشرياً للابانة عن حقائق بلغة

---

(١) الموسوعة الميسرة: ١٤٨.

مجازية ثم نسي المجاز وفسرت حرفياً[1]. الاّ أن الاساطير كظاهرة انسانية من القوّة والتأثير ما يضطر المرء الى عدم الاكتفاء بهذين التفسيرين.

وتبقى للأساطير قدرة على التأثير المستمر في حياة الانسان مع التقدم العلمي الذي احرزته البشرية في العصر الراهن.

ولقد انحسر اليوم دور الاسطورة التاريخي كما تضاءل دورها العقيدي ولكنها اضحت في مطلع القرن العشرين نبعاً للخيال الشاعري وقلما نجد شاعراً أو أديباً بقي في معزل عن تأثير الاساطير.

بل اننا نجد عالماً في التحليل النفسي (فرويد) يرمز في بعض دراساته الى اسطورة (أوديب) لتكون مدخلاً لأفكاره في (عقدة أوديب).

وعقدة (الكنزا) فترمز الأولى الى ميل الابن الى أمه وفي الثانية الى ميل الفتاة الى أبيها.

ويعد الشاعر الراحل بدر شاكر السيّاب في طليعة الشعراء الذين استلهموا الاساطير في اشعاره ولعل قصيدته ((مرحى غيلان)) مثال بارز في ذلك؛ فقد جاءت مشحونة بالاساطير إذ نجد الاله ((بعل))

---

(١) ن. م.

الفينيقي و((سيزيف))[١] اليوناني و((عشتار)) ربّة الحسن البابلية؛ اضافة رمز غير أسطوري وهو ((المسيح)) الذي صلب وفقاً لعقيدة المسيحيين بطبيعة الحال.

وبالرغم من أن نزول القرآن، الكريم وضع حدّاً لدور الاسطورة التاريخي إذ بدأت في عصر الاسلام الكتابة التاريخية وأصبحت حقلاً علمياً واسعاً؛ الاّ أن جنوح الشعوب الى الأسطورة لم يتوقّف، إذ ظهرت على سبيل المثال أساطير ((ألف ليلة وليلة)) المفعمة بالخيال البشري الوثاب وتطلّعات الانسان الحالم.

ويبدو أن الأساطير اصبحت ملاذ السياب في الهروب من واقعه المرير؛ ما هي خيارات السياب اذن في تلك الظروف العصيبة بعد أن خاب أمله حتى بأولئك الذين حسبهم رفاق درب ورفاق مسيرته نحو غاياته الانسانية.

ويذهب البعض الى أن السياب قد بالغ في استخدام الاساطير حتى تلك التي لا يمكن لها أن تستثير المتلقي لغربتها عن بيئته وغربته عنها[٢].

---

(١) حكمت عليه الآلهة بحمل صخرة من الوادي الى قمة الجبل وبعد أن يصل تسقط الصخرة الى اسفل الوادي فيعود لحملها مرّة أخرى وهكذا.

(٢) ن. م / هـ هـ هـ.

وربما يمتلك الشاعر الاوربي مبرراته الكافية في اللجوء الى الاسطورة في عالمه الفارق في المادية ((ذهباً وحديداً))[1] أما بدر فليس لديه ما يبرر ذلك في بلد مثل العراق المعروف باصالته وسكانه الطيبين.

سِفر أيّوب

وفي كل الأحوال تبقى مرحلة ((الاساطير)) في حياة السيّاب احدى مراحل حياته الصاخبة، ذلك أن مرضه الذي تجرّع منه صنوف الألم والمعاناة سوف يأخذ بقاربه التائه وسط أمواج الحياة قريباً من الشاطئ.. شاطئ الايمان، ولعل في قصيدته سفر أيوب ما يؤيد ذلك يقول السياب وهو يومئذ في لندن على سرير المستشفى:

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبدّ الألم

لك الحمد أن الرزايا عطاء

وان المصيبات بعض الكرم

ألم تعطني انت هذا الظلام

وأعطيتني أنت هذا السحر؟

---

(١) ن. م.

فهل تشكر الأرض قطر المطر؟

وتغضب إن لم يجدها الغمام؟

شهور طوال وهذي الجراح

وتمزّق جنبي مثل المُدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

ولكن أيوب إن صاح صاح

لك الحمد، أن الرزايا ندى،

أضم الى الصدر باقاتها

هداياك في خافقي لا تغيب

هداياك مقبولة هاتها!

أشدّ جراحي وأهتف بالعائدين:

ألا فانظروا واحسدوني، فهذي هدايا حبيبي

وان مسّت النار حرّ الجبين

توهمتها قبلة منك مجبولة من لهيب

جميل هو السهر أرعى سماك

بعينيّ حتى تغيب النجوم

ويلمس شباك داري سناك.

جميل هو الليل: أصداء بوم

وأبواق سيارة من بعيد

وآهات مرضى، وأم تعيد

أساطير آبائها للوليد.

وغابات ليل السهاد، الغيوم

تحجّب وجه السماء

وتجلوه تحت القمر

وإن صاح أيوب كان النداء:

((لك الحمد يا رامياً بالقدر

ويا كاتباً: بعد ذاك، الشفاء)) [(١)].

ويعود تاريخ القصيدة الى ٢٦ / ١٢ / ١٩٦٢.

وبعد ثلاثة ايام كتب السياب المقطع الرابع من هذه القصيدة وقد جاء فيه ما يعكس حالة من التسليم الانساني لله سبحانه وتعالى بعد أن يعكس أصداء من شكوى أيوب: ((رب اني مسّني الشيطان بنصب وعذاب)) [(٢)].

يا ربّ أيوب قد أعيا به الداء

---

(١) ديوان السياب: ٢ / ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

(٢) ص: الآية (٤١).

في غربة دونما مال ولا سكن

يدعوك في الدّجنِ

يدعوك في ظلموت الموت: أعباء

نادَ الفؤاد بها، فارحمه إن هتفا

يا منجياً فلك نوح مزّق السُّدُفا

عني أعدني الى داري، الى وطني.

أطفال أيوب من يرعاهم الآنا؟

ضاعوا ضياع اليتامى في دجىً شات

يارب أرجع على أيوب ما كانا

جيكور والشمس والاطفال راكضة بين النخيلات

وزوجه تتمرّى وهي تبتسم

أو ترقب الباب، تعدو كلما قرعا:

لعله رجعا

مشّاءة دون عُكّاز به القدم!

لأنه منك حلوٌ عندي المرضُ

حاشا، فلست على ما شئت اعترض

والمال؟ رزق سيأتي منه موفور

هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا

من رقدة الموت كم مصّ الدماء بها دود ومدَّ بساط

الثلج ديجورُ

اني سسأشفى، سأنسى كل ما جرحا

قلبي، وعرّى وعظامي فهي راعشة والليل مقرور

وسوف أمشي الى جيكور ذات ضحى!

دروب الحياة

في عام ١٩٤٦ تعرف بدر على الشاعرة العراقية نازك الملائكة وناقشها في كثير من القضايا الادبية.

اعتقل في نفس العام لنشاطه السياسي وتلقى انذاراً من الكلية بطرده بسبب ذلك.

وفي عام ١٩٤٧ ارسل مجموعته الشعرية ((ازهار ذابلة)) الى مصر وصدرت في العام التالي.

عين في مدينة الرمادي مدرساً للغة الانجليزية للعام الدراسي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وكان محسوباً على الشيوعيين.

كان العراق ما يزال يغلي بسبب تداعيات القضية الفلسطينية بعد الاعلان عن قيام دولة اسرائيل، وأدت الاوضاع الى استقالة وزارة الباججي في ٦ كانون ١٩٤٩، وكانت ذكرى ((الوثبة)) في كانون ١٩٤٨

على الأبواب فقررت حكومة نوري السعيد تقديم العطلة الدراسية قبل ٢٧ / ١ / ١٩٤٩ فقرر بدر السفر الى قريته.

وعندما وصل القرية أخبره والده بأن الشرطة تفتش عنه وطلب منه الاختفاء عن الانظار؛ ولكن بدر ظن ان الشرطة لن تعود بسبب المطر، ولكنهم جاءوا واقتادوه الى البصرة ومنها الى بغداد.

وصعّدت حكومة نوري السعيد حملتها على الشيوعيين وحوكم الكثيرون منهم ونفذت احكام اعدام باربعة من قياديهم وفي طليعتهم رمز كبير هو ((فهد)).

واطلق سراح بدر من السجن مع قرار بفصله ومنعه من التدريس عشر سنين.

وعاد بدر مرّة أخرى الى جيكور يجترّ آلامه. وقد فقد حماسه للشيوعيين شيئاً فشيئاً الى أن وصل الذروة بعد أن صدم بموقفهم تجاه القضية الفلسطينية.

قرر بدر العودة الى بغداد عام ١٩٥٠ واصدر مجموعته الثانية ((اساطير)) التي تضم نتاجه الشعري في سنته الدراسية الأخيرة (٤٧ ـ ٤٨).

وانفجر الوضع الشعبي في ٢٢ / ١١ / ١٩٥٢ بعد اضراب طلاب كلية الصيدلة فكان ذلك الشرارة التي الهبت الوضع المتفجّر فعمت الأضرابات وسقطت حكومة نوري السعيد؛ وتسلّم الجيش مقاليد الحكم واعلنت الاحكام العرفية.

وفرّ بدر الى خارج الحدود عبر شطّ العرب حيث وصل الى مدينة خرمشهر (المحمرة) بقي فيها مدّة شهرين قبل أن يتوجه الى الكويت بجواز سفر ايراني زوّده به رفاقه من الشيوعيين الايرانيين.

بقي في الكويت ستة أشهر يعود بعدها الى جيكور بعد تشكيل وزارة جديدة برئاسة فاضل الجمالي.

عاد بدر الى بغداد وبدأ يرتاد مقهى حسن العجمي واستطاع السفر الى بوخارست لحضور مهرجان الشبيبة. وعمل في احدى الصحف البغدادية. في عام ١٩٥٥ تزوج بدر وقد سجل العقد بتاريخ ١٩ / ٦ وكانت ((إقبال)) فتاة متعلمة تخرجت من دار المعلمين ومن قضاء ((أبي الخصيب)) القريب من قريته.

وصدرت له قصيدة حيّا فيها كفاح المجاهدين الجزائرين ويبشر بالثورة بالعراق، وما لبث أن انفجرت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وفي تلك الفترة بدأت محنته مع المرض وتزامنت مع معاناته من مسألة الانتماء ذلك أن بدر بطبيعة تكوينه الروحي لن يستطيع أن يكون شيوعياً.

وتعرض بدر الى ايذاء رفاق الامس بعد أن أصبحوا حكاماً.

في سنة ١٩٦٠ صدرت لبدر مجموعته الرائعة ((انشودة المطر)) وتضم روائعه المطوّلة الثلاثة: ((حفار القبور))، ((المومس العمياء)) و((الاسلحة والاطفال)).

وفي أخريات عام ٦٠ قرر بدر العودة الى مدينة البصرة بعد أن هزّه الشوق الى جيكور ((وبويب)).

وفي تلك الفترة بدأ هاجس المصير الذاتي يشغل بال السيّاب.. ان الزمن يمضي والعمر، تولد أشياء وتخبو أشياء وتختفي وتدور رحى الايام تسحق البشر والمدن والحضارات:

أهكذا السنون تذهب

أهكذا الحياة تنضب

أحسب أنني أذوب.. أتعب

أموت كالشجر

وينظر السيّاب الى الوراء الى ذكريات تختفي وراء ضباب كثيف من الأيام، وغبار السنين يلف كل مرابع صباه وطفولته:

طفولتي صباي، أين كلّ ذاك؟

أين حياة لا يحدّ من طريقها الطويل سور؟[١]

في ربيع ١٩٦١ زار بدر جيكور وأججت الزيارة في نفسه حشداً من المشاعر الحزينة، انتجت قصائد مسربلة بالحزن وهواجس النهاية.

وكان السياب خلال تلك الفترة كشمعة تخبو شيئاً فشيئاً. وبعد

---

(١) ن. م: ١ / ١٤٣.

أسفار الى باريس ولندن للعلاج حط رحاله في المستشفى الأميري بالكويت؛ حيث مكث فيه فترة تناهز الستة أشهر ولم تجد وسائل العلاج في انقاذه من براثن الموت، الذي انشب اظفاره؛ فأغمض عينيه في حدود الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ٢٤ / ١٢ / ١٩٦٤.

وحمل جثمانه صديقه علي السبتي وانطلق به الى البصرة في سماء ممطرة وشوارع مقفرة ليجد بيت السيّاب في الموانئ مغلقاً بعد قرار من مؤسسة الموانئ بطرد الأسرة لعجزها عن دفع الايجار ونفقات الكهرباء.

وشيع بدر الى مقبرة الحسن البصري ليرقد بسلام.

في عام ١٩٧١ أقيم له احتفال بمناسبة الذكرى السادسة لرحيله وازيح الستار عن تمثال شامخ على ضفاف شط العرب وقد حفر على قاعدته مقطع من أشعاره تتضمن حنيناً الى وطنه الغالي الذي كان يتغنى به في حياته:

الشمس أجمل في بلادي من سواها

والظلام

حتى الظلام هناك أجمل

فهو يحتضن العراق

واحسرتاه متى أنام

فأحسّ أن على الوسادة من ليلك

الصيفي طلاً فيه عطرك يا عراق

بين القرى المتهيبات خطاي

في المدن الغريبة

غنيت ترتبك الحبيبة

وحملتها فأنا المسيح

يجرّ في المنفى صليبه (١).

وقد أفرزت معاناته عن ارتقاء في تفكيره الانساني:

أودّ لو عدوت أعضد المكافحين

أشدّ قبضتيَّ أصفع القدر

أودّ لو غرقت في دمي الى القرار

لأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحياة.

إنّ موتي انتصار

وأصبح العالم في رأي السياب ليس مقسماً «.. الى مسيحيين ومسلمين ولا الى دول متقدمة ودول متأخرة ولا الى شيوعيين

---

(١) ن. م: ١ / ٣٢٠ غريب على الخليج.

ورأسماليين كما كان يحدث دائماً، وانما انقسم الى شيء أهم من ذلك وأشمل وأحفل بالروح الانسانية كما عبر عنها بوذا والمسيح ومحمد وجميع الانبياء والمصلحين منذ اقدم العصور حتى الآن.. انقسم العالم الى أخيار وأشرار[١].

ورحل السياب بعد أن عاش حياة صاخبة ورسى قاربه الى شاطئ الايمان.. كان الايمان ينبع في أعمق أعماقه وتبلور في عاطفته وانسانيته وتمجيده لرموز خالدة في طليعتها سيّد الانسانية وآخر الانبياء في تاريخ البشر محمد ﷺ:

واشرقت فاهتزت نواويس في الدجى ... *وأوشك موتى أن يهبّوا وينشروا*

نبي الهدى يا نفحة الله للورى ... *ويا خير ما جاد الزمان المقتّر*

اذا ما افتخرنا كنت للفخر أولاً ... *وإن جاءنا نصر فذكراك تنصر*

ولولاك ما اندكّت عروش ولا هوى ... *صليب على كفّيه كنّا نسمّر*

وكم سار في شرق من الغرب جحفل ... *بقرآنك الهادي وفي الغرب عسكروا*

ويا مولد المختار ميلاد أمّة ... *وميعاد بعث أنت فيه مقدّر*

ولا ينسى السيّاب أن يذكر توبته وعودته الى مخزونه الروحي وذلك النبع الفطري الكامن في أعماقه فيقول:

---

(١) ن. م: ٢ / ٢٣٥.

نبي الهدى عذراً اذا الشعر خانني ولكنه قلبي بما فيه يقطر
نبي الهدى كن لي لدى الله شافعاً فإنّي ككل الناس عان محيّر
تمرست بالآثام حتى تهدمت ضلوعي وحتى جنتي ليس تثمر
ولكن من ينجده طه فقد نجا ومن يهده ـ والله ـ هيهات يخسر(١)

وكما تغنّى بولس سلامة بملحمة الحسين عليه السلام وثورته تغنى السياب بأبي الاحرار:

هبّ في الفجر هبوب العاصفات قدر حطّم أبواب الطغاة
قدر من سدّة الله سعى يزرع الزيتون في الأرض الموات
يا لها من قبضة في حدّها يكمن الموت وأسباب الحياة
لم تلح لولاك في ذاك الدجى شمسنا، أو تهوِ أصنام البغاة
يا أبا الأحرار، يا رافعها راية تزهو على شطّ الفرات(٢)

وله يتغنى بليلة القدر رمز المجد الاسلامي وعزّة الامة الإسلامية:

يا ليلة القدر يا نوراً أضاء لنا قاع السماء فأبصرنا مدى عجبا
تنزل الروح رفافاً بأجنحة بيض على الكون أرخاهنّ او سحبا
وللملائك تسبيح وزغردة تكاد رنّاتها أن تذهل الشهبا(٣)

---

(١) ديوان السياب: ٢ / ٧٥٧ ـ ٥٨١. مولد المختار يعود تاريخها الى سنة ١٩٦١.

(٢) ن. م: ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٣) ن. م: ٥٧١.

السياب ملحميا

بقي أن نشير آن الى أن بدر شاكر السياب شارك بولس سلامة في رغبته في أن يكون شاعراً ملحمياً وفي أن تعرف قدرته على ذلك؛ ففي عام ١٩٥١ ظهرت أولى مطولاته تحمل عنوان ((فجر السلام)).

وتكمن أهميتها في انها كانت فاتحة عهد جديد في مسار السياب الشعري؛ وقد اطلق عليه الشاعر بالعهد الانساني، حيث أكد على ضرورة خروج الشاعر من صدفة الذات ومشكلاتها والانطلاق الى آفاق أرحب في عرض المشكلات الانسانية.

وظهرت له بعد ذلك عدّة مطولات أخرى، ((حفار القبور))، ((المومس العمياء))، ((الاسلحة والاطفال))، ((انشودة المطر)) و((القيامة الصغرى)) التي لم يتمّها الشاعر؛ ((حتى ليحسّ من يدرس نتاجه في هذا الدور انه كان يريد أن يعرف بالقدرة على القصائد الطويلة))[١].

ويبدو أن السيّاب كان ميّالاً الى الملحمة بطبيعته فلم تكن القصيدة تتسع لانفعالاته، فهو انفعال مديد متشعب أحياناً[٢].

---

(١) ديوان السياب: ٢/٢٣٠.

(٢) ن.م / ٢٣١.

«ولهذا كان بناء القصائد الطويلة هو المجال الذي يريد السياب أن يتفوق فيه على سواه من المعاصرين، سواء أكان نهجهم تقليدياً أو تجديدياً.. ولم يكن السياب محروماً من النفس الملحمي بل لعله هو الشيء الذي يميزه بين الشعراء المحدثين والقصيدة الطويلة أقرب القصائد الى الملحمة..»[١].

نماذج

فجر السلام

يخاطب السياب ضمير الانسان ووجدانه؛ ليتصور جانباً من أهوال الحروب وآثارها الكارثية:

صور لنفسك في الخيال أباك في وسط الحريقِ

يدعوك بالصوت الابحِّ: وقد تخبّط كالفريقِ

ويمدّ من خلل الدخان يديه.. يبحث عن طريقِ

* * *

وانظر لأمك وهي ترقد في التراب على قفاها

تتجاذب العقبان ثدييها وتُفقأ ناظراها

وتلقّ من دمها الكلاب، وينخر الدود الشفاها

* * *

---

(١) ن. م / ٢٣٢.

وتملّ[١] زوجك، وهي تركض بين أشباح الجياع

شعثاء[٢] تلهث: والرياح تصكها دون انقطاع

حملت قميصك في ذراع، والرضيعة في ذراع

* * *

أو جثة ابنك وهي تزحف دون رأس في الدماء

أو مرضع ابنتك الممزّق وهو يسحق بالحذاء

ورفات[٣] موتاك الرميم وقد تناثر في الهواء

* * *

وفي مقابل هذه المشاهد الرهيبة يصوّر السيّاب مشاهد حالمة؛ حيث يرفرف السلام ويلقي بظلاله الوارفة.

ومنهج التقابل والمقارنة بين مآسي الحرب ونعم السلام هو المنهج السائد في ملحمته فجر السلام أو مطولته الشعرية:

صوّر لنفسك في الخيال أباك في ليل الشتاء

وكأنما ردّت عليه صباه أخيلة الصلاء[٤]

---

(١) تملّ: انظر

(٢) شعثاء: منفوشة الشعر.

(٣) الرفات: الاجساد الميتة البالية.

(٤) الصلاء: الموقد.

ما زال يقرأ، والصغار يضاحكونك في الخفاء

* * *

وانظر لأمك وهي تنصت أي عجب يزدهيها

عادت الى الصوت الرتيب: الى الغوابر من سنيها

وتمثلته فتى.. يجمع ساعديه، ويحتويها

* * *

الشاطئ الضحاك والاصداء والقمرُ الطروب

سكران يغرق في جدائلها، وتهمسه الطيوب

وتضمها.. ويطل من خلل العيون مدى رحيب(١)

* * *

تتنفس الاضواء فيه.. كأنما سمعت غناءا

حلو الرنين، فراقصته، هناك أجنحة تراءى

بيضاء.. يتبعها الصغار بأعين تندى أخاءا

المومس العمياء

يصور السيّاب حلول المساء وكيف تستيقظ الغرائز البشرية العمياء والخطاة وهم يتجهون الى الكهوف العصرية (حانات الخمور).

والمومس العمياء وهي تستعد كما في كل ليلة لاستقبال الزناة:

---

(١) ن. م / ٢٥٩ ـ ٢٦١.

الليل يطبق مرّة أخرى، فتشربه المدينه

والعابرون، الى القرارة.. مثل أغنية حزينه

وتفتحت كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق

كعيون ((ميدوزا)) [١] تحجّر كل قلب بالضغينه

وكأنها نذرٌ تبشر أهل ((بابل)) بالحريق

من أي غاب جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف؟

من أي وجر للذئاب ؟

من أي عشّ في المقابر دفّ أسفع كالغراب؟

((قابيل)) أخف دم الجريمة بالأزاهر والشفوف

وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء)) [٢].

ثم يصوّر السيّاب في مقطع آخر تلك المرأة العمياء التي اصحبت ضحية بائسة تهدر عفتها؛ حتى أن المرء لا يكاد يصدّق ان هذه المرأة التي تختفي وراء المساحيق والطلاء، وقد خلا وجهها من آثار الحياء كانت ذات يوم طفلة بريئة تمرح في الحقول بفرح:

جيف تستّرُ بالطلاء، يكاد ينكر من رآها

---

(١) في الاساطير اليونانية أن عيون ميدوزا تحوّلُ كل من تلتقي بهما عيناه الى حجر.

(٢) ن. م: ١/٥١٠.

أن الطفولة فجّرتها ذات يوم، بالضياء

كالجدول الثرثرثار . أو أن الصباح رأى خطاها

في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء

ويكاد ينكر ان شقّاً لاح من خلل الطلاء

قد كان . حتى قبل أعوام من الدم والخطيئة .

ثغراً يكركر أو يثرثر بالأقاصيص البريئة

لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء

لأبٍ يقبّل وجه طفلته النديّ أو الجبين

أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء

ما كان يعلم أن ألف فمٍ كبئر دون ماء

ستمصّ من ذاك المحيّا كل ماء للحياء

حتى يجفّ على العظام . وأن عاراً كالوباء

يصم الجباه فليس تغسل منه الاّ بالدماء))[١].

حفار القبور

ملحمة ترمز الى الذين يعيشون على موت الآخرين وتقوم سعادتهم على اتراح غيرهم:

---

(١) ن. م / ٥١٣.

يا ربّ.. اسبوع يمرّ ولست أسمع من غناء

الاّ النعيب

وتنهّد الريح الرتيب:

واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟

والطيبات: من الرغيف، الى النساء، الى البنين

هي منّة الموتى عليَّ، فكيف أُشفق بالأنام؟

فلتمطرنّهمُ القذائف بالحديد، وبالضرام.

وبما تشاء من انتقام

من حمّيات أو جذام!

نذرٌ عليّ: لئن تشبّ لأزرعنّ من الورود

ألفا تروّى بالدماء.. وسوف أرصف بالنقود

هذا المزار.. وسوف أركض في الهجير بلا حذاء

وأعدّ أحذية الجنود..

الاسلحة والاطفال

وتكاد تكون استمرارا لحفار القبور، فالبائع المتجول الذي ينادي في الازقة والشوارع لشراء الرصاص والحديد، حيث يأخذ المعدنان طريقهما الى مصانع الاسلحة.. هذا البائع أيضاً يرمز الى الأنانية البشرية؛ حيث يتمنى الفرد موت الآخرين ليعيش ويثرى؛ بالاضافة

الى رمزية في قوّة الحياة وحرمانها..

ولكن الانتصار في النهاية يكتب للحياة؛ حيث الاطفال الذين يولدون كل يوم إنّما هو حشد جديد من الآمال؛ بحياة أفضل في ظلال السلام الوارفة:

عصافير؟ أم صبية تمرحُ

عليها سناً من غدٍ يلمحُ

واقدامها العاريه

محار يصلصل في ساقيه

لأذيالها رفّة الشمألِ

سرت عبر حقل من السنبلِ

وهسهسة الخبز في يوم عيد

وغمغمة الأم باسم الوليد

تناغيه في يومه الأولِ

عصافير؟ أم صبية تمرح؟

أم الماء من صخرة ينضحُ

ولكن على جثّة دامية؟

وقبرة تصدحُ

ولكن على خرْبةٍ بالية؟

عصافيرُ؟!

بل صبية تمرح

وأعمارها في يد الطاغيه

والحانها الحلوة الصافيه

تغلغل فيها نداء بعيد

((حديد عتـ... يق

رصا..ص

حديـ... ـد))

((حديد، حديد))

وأم تبيع السرير العتيق

تبيع الحديد الذي أمس كان

مهاداً عليه التقى عاشقان

وشدّ نداء الحياة العميق

ذراعاً بأخرى، فما تخفقان!

فيا حسرتا حين يمسي غداً

شظايا تدوّي وبعض المُدى

تنحّى بها عن ذراع ذراع

وينهدّ مهدٌ ويخبو شعاع

عصافير؟ أم صبية تمرحُ؟

أم الماء من صخرة ينضحُ

وأقدامها العاريه

مصابيح ملء الدجى تلمح،

هتكنا بها مكمن الطاغيه

وظلماء أوجاره الباليه

علينا لها: أنها الباقيه

وأنّ الدواليب في كل عيد

سترقى بها الريح.. جذلى تدور!

ونرقى بها من ظلام العصور

الى عالم كل ما فيه نور

((رصاص، رصاص، رصاص حديد

حديد عتيق))

لكون جديد

ومن المؤكد ان مطولات السيّاب لا يمكن عدّها في باب الملاحم ولكنها تكشف عن قدرات ملحمية كافية.

وتبقى الاشارة الى أن الملامح العامّة لمطولاته هي اجتماعية بالدرجة الاولى: تغوص في النسيج الاجتماعي استكشافاً وعلاجاً

وتطلعات الى الغد، فيما ملاحم بولس سلامة تتغنى بالأمجاد التاريخية التي تؤطر مثلاً وقيماً أخلاقية وانسانية نبيلة.

وخلاصة القول أن بدر شاكر السيّاب عاش تجربته انساناً قاسى ما قاسى من العذاب وعانى ما عانى من الآلام، خلال حياته الصاخبة وهو يشق طريقه في دروب الحياة؛ اكتشف اضواءً تشعّ من بعيد ورأى قلبه الظامئ يهفو الى الينابيع.. ينابيع الايمان.. الايمان بانسانيته ومبدأ هذه الانسانية الله تبارك وتعالى.

فعاش انساناً ورحل عن هذه الدار الفانية مؤمناً وكان الألم وحده من أوقظ كوامن فطرته التي هي السرّ الالهي المودع في أعماقه.

المحتويات

هــذا الكتاب

بولس سلامة شاعر عانى وصبر ، وكان الإخلاص دليله في كل ماكتب، يعرف الحقيقة ويقولها شعراً جميلاً،وقد تفرد من بين الشعراء بإنشاده ملحمة عظمى في التاريخ الإنساني هي ملحمة«عيدالغدير».... ، في هذا الكتاب محاولة لتقديم معرفة ببولس سلامة الإنسان والشاعر والأديب ، وبتجربة مزيدة من العيش وتمثله وتمثيله لغة جميلة تضيىء دروب الأمة وما أحوجنا الى هذا الضوء في هذه الأيام!